

مهرجان القراءة للجميع

الاعمال الخاصة

مكتبة
الأسرة
1999

بالطول والعرض

رحلة إلى بلاد الخواجات

عاصم حنفى

تقديم: محمود السعدنى



بالطول والعرض

بالطول والعرض

رحلة إلى بلاد الخواجات

تقديم : محمود السعدنى
عاصم حنفى



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

بالطول والعرض رحلة إلى بلاد الخواجات

تقديم : محمود السعدني

عاصم حنفي

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

القنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
 وها هي تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة
 من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
 والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
 روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
 سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
 بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلحفها شبابنا
 صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
 سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
 والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

إذا كانت كل الطرق تؤدي إلى روما، فكل الظروف التي أحاطت بالكاكتب عاصم حنفى كانت تؤدي به إلى السخرية. السخرية من نفسه ومن الناس ومن الزمان. فهو ولد ونشأ وعاش في حي من أغرب أحياء القاهرة، حي يلاصق من الناحية الغربية أرقى وأفخر أحياء العاصمة وهو حي جارين سيتى، ويجاور من الناحية الشرقية حي المديح وتلال زينهم والبغالة وشارع السد، أما الحي نفسه فهو سكلانس عجيب من كل الألوان والأصناف صفار موظفين على عمال على عدد كبير من أصحاب الدكاكين. هو نفسه ابن صاحب دكان، والده صاحب محل ترزى فى حي الغالبية الساحقة من سكانه يرتدون الجلابية، ومن يرتدى منهم ملابس افرنجية يكتفى بالبنتلون. وأشهر شخصية فى الحي كان يدعى أحمد الانجليزى، فقد كان شديد الشبه بعساكر الانجليز، وكان يرتدى البنتلون والقميص والنظارة البيرسول، ويقف على ناصية شارع قصر العيني وقفة تأمل وتحفز وتاهب لأمر خطير. ثم فجأة يصيح بصوت كالجاعورة.. البلى بلى باى، ويكرر العبارة أكثر من مرة، ثم ينصرف ليحتل موقعا جديدا يطلق خلاله صواريخ.. البلى بلى باى!!

ومع أنه لا يوجد فى أسرة عاصم فلاح واحد أمسك بالفاس واستعمل المحراث، فقد فرضت عليه الظروف أن يدرس الزراعة. هو نفسه لم يسأله أحد عن رايه فى دراسة الزراعة، ولكن مجموعه فى الثانوية العامة هو الذى قاده إلى هناك. وهكذا وجد عاصم حنفى نفسه يحمل شهادة جامعية وعاطلا عن العمل. فلا هو يصلح للخياطة فى دكان الوالد، ولا يصلح للزراعة التى درسها فى الكتب. حظله الحسن أنه من مواليد ثورة يوليو، عاش فترة الأحلام العريضة والتحديات الكبرى، واتصل ببعض المثقفين وتأثر بهم ولكنه اكتشف بعد قليل أن الشعارات شئ والواقع شئ آخر. عمل

موظفا بعض الوقت فى مصنع باحدى مدن الدلتا. واكتشف أن أكثر الناس تشبها بالاشتراكية هم أشدهم نهما الى المال العام، وأن أكثر العمال تشبها هم أقلهم عطاء وابعدهم عن الثورة. وعندما انتابه انغرف من سوء الأحوال، استقال من المصنع، وأثر أن يعيش عاطلا فى القاهرة. وفى بداية حكم السادات وجد له مكانا فى جريدة تابعة لمبزر من المنابر ووجد نفسه فى الصحافة. ولكنه أخطأ البداية الصحيحة، فانهمك فى كتابة مقالات ثورية عن الحنجورى المتشامخ والشواشى العليا للبرجوازية. ثم غادر مصر فى أواخر السبعينات، وعرضوا عليه العمل فى الخليج حيث الهدوء والفلوس، ولكنه رفض العرض. وذهب الى لندن وعمل محررا فى مجلة ٢٣ يوليو، ومن أول مقال (ثورى) كتبه، اكتشف العبدلله أن مصر فى محنة، بدليل أنها خلت من نوع (البقال) الأستاذ. أما البقال فهو مكتشف نجوم كرة القدم فى عصرها الزاهر، كان عبده البقال يجوب الحوارى والنجوم والكفور بحثا عن مواهب جديدة. وكان له عين صقر لا تخطئ الموهبة. وكان جاهزا لتوريد كل أنواع المواهب، فى الهجوم والدفاع وحراسة المرمى. وعلى من يريد الاتصال به أن يتصل به عند البقال، فلم يكن فى بيت عم عبده العارف والخبير جهاز تليفون.

ويموت عبده البقال خلت ملاعبنا من المواهب. يبدو أن الحال نفسه وصل الى مجال الألب والصحافة بعد أن رحل جميع البقالين فلم يعد يوجد منهم أحد. وعندما جاء عاصم حنفى الى لندن كان لايزال يلتزم بأسلوب الحنجورى. ولكن العبدلله لمح بين سطور الحنجورى عينا ناقدة وساخرة، وروحا قلقة لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب. وأشارت له على الطريق فاندش واستنكر، ثم جرب نفسه مرة ومرة فإذا به يعثر على نفسه. وصار عاصم حنفى من الكتاب الساخرين، واستطاع أن يفرض سخريته على الصحف

المصرية والعربية أيضا. وكما عاش في حى المتناقضات واكتوى بنارها، إلا أنه لم يلجأ الى الخداع لكى يعيش، فلم يكذب ولم ينافق ولم يبحث عن باب للارتزاق. وعندما اشتغل بالصحافة لم ينضم لجانب ضد جانب ولم يرفع شعارات جوفاء. ولكنه انحاز الى جانب الشعب والتزم الصدق ودافع عما يعتقد أنه الحق. ثم وصل عاصم حنفى الى قمة التناقض، عندما التقى ببنت سويسرية واسعة الثقافة صارمة النظام. أحبت عاصم حنفى ابن حى المواردى وقررت أن تتبعه الى آخر الأرض، سويسرية نقلته من أكل الطواجن والاكثفاء بكل السلطة، وحرمت عليه البدلة أم صفيين ونقلته إلى البنطلون والسويتير، وعلمته أن الحياة ليست مناظر أو مظاهر ولكنها سلوك ثم مبدأ وهدف محدد. السويسرية تزوجت عاصم حنفى، مع أنه فى علم الأجناس ينتمى إلى الجنس المضطهد فى الولايات المتحدة. لعل هذه التوليفة التى فرضتها عليه الحياة هى التى شقت طريقه فى عالم السخرية، ليصبح واحدا من أبرز كتابها من الجيل الوسيط.

يبدو اننى نسيت نفسى فتكلمت أكثر مما ينبغى وفعلت نفس ما يفعله البلياتشو الواقف أمام خيمة السيرك، يشرح للزوار مزايا البلياتشو فى داخل الخيمة، ولو أنصف البلياتشو الذى فى الخارج، لترك مكانه وسمح للناس بالدخول الى الخيمة ليروا ويحكموا بأنفسهم على مدى مهارة البلياتشو الذى فى الداخل. والآن أدعوكم إلى دخول الخيمة لكى تروا وتحكموا بأنفسكم على قلم عاصم حنفى وهو يقفز على الحبال. والعبد لله واثق انكم ستضحكون من الأعماق، ولكنه ضحك. لسوء الحظ أو لحسن الحظ. كالبكاء!

محمود السعدنى



جراثيسا ياک عوازيل



ولأننى أتكلم انجليزى.. فشر ترجمانات سقارة والهرم.. وأجيد
الفرنساوى على اعتبار أنها لغة الأرستقراطية والعائلة الكريمة.. فأقول بابا
وماما و«باردون» و«موسى».. فقد اتخذت قرارا تاريخيا.. بأن أشد الرجال
إلى أسبانيا.. عسى أن يفتح الله علينا بلغة نالكة تنفع فى الشغل..
خصوصا أن ثلث شعوب الأرض تتكلم أسباني.. وغالبية دول أمريكا
الجنوبية والوسطى لا تتكلم سوى لغة بيكاسو ولوركا وسلفادور دالى..
وهى سبعة أضعاف الشعوب التى تتكلم انجليزى.. وعشرين ضعف
الشعوب الناطقة بالفرنساوى.. وقلت فى نفسى.. إننى لو تعلمت أسباني..
فريما ترقيت فى الشغل.. فأحتل منصب رئيس قسم الشؤون الأسبانية
بالمجلة.. أو ربما يطلبون رئيس تحرير للأهرام أو الأخبار.. بشرط أن يجيد
لغة أسباني.. فأكون أول الناجحين..

ولأننى ناصح بدرجة جيد جدا.. فقد حسبتها جيدا.. وعندما سألتنى
الدموازيل فى شركة الطيران عن المدينة التى أفضّلها فى أسبانيا.. قلت
لها غرناطة.. أو جراتادا كما ينطقونها.. وقدرت أن غرناطة ليست على
خريطة السياحة العالمية.. وأسبانيا التى تستقبل كل سنة ٢٠ مليون سائح..
تدعوهم لشواطئ «كوستابرافو» وجزر الكنارى ومارييلا.. ومن المؤكد أن
غرناطة ستكون أرخص.. لأن الاقبال عليها أقل..

لكن الدموازيل فى شركة الطيران.. صححت لى حساباتى.. عندما أكدت
أن السفر والإقامة فى غرناطة سيكون أغلى طبعاً.. لسبب بسيط.. هو أن
المدين السياحية تعنى توافر شبكة من طائرات «الشارتر» الأرخص.. وتعنى

وجود فنادق وموتيلات أكثر.. عكس الحال في غرناطة.. التي يقبل عليها السائحون من أهالي أسبانيا فقط.. والحكاية أن أهالي أسبانيا يهجرون المدن السياحية الأسبانية في الصيف.. ويؤجرون مساكنهم مفروشة للسائح.. ويذهبون إلى غرناطة.. للفسحة والانطلاق.

وقالت لي المدموازيل: إنك لو كنت ترغب في التعرف على أسبانيا الحقيقية.. بعيدا عن دوشة السائح.. وعن زحمة محلات الريمي الأمريكي.. والسجق الألماني.. والبيتزا الطلياني.. وإذا كنت تريد أن تاكل بالأسباني.. وتعيش بالأسباني.. وتنام بالأسباني.. فعليك بغرناطة.. ولا تنس أن غرناطة هي درة أرض الأجداد في الأندلس.. ثم إنها آخر القلاع التي سقطت بسقوط العرب في نهاية القرن الخامس عشر.. وهناك سوف تقابل أولاد العم.. وبنات الخال..

سحرتني ابتسامة المدموازيل.. وثقتها في نفسها وبلادها.. وشدنتني فكرة لقاء بنات الخال.. فقلت أجرب مغازلة المدموازيل.. فقلت لها إنني مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا.. بشرط أن أقابل هذه الابتسامة من جديد.. فقالت وهي تسلمني تذكرة السفر: جراثسيا..

وهكذا تعلمت الكلمة الأولى في قاموس الأسباني.. جراثسيا.. تعني شكرا.



فور خروجي من مطار غرناطة.. وهو مطار صغير بالمناسبة.. يشبه مطار الأقصر.. فور خروجي من المطار.. أدركت حجم الورطة التي وقعت فيها.. فأنت في درجة حرارة ٤٢ تماما مثل الأقصر وأسوان.. مع الفارق أنك في الأقصر سوف تقابل من يدعوك لحاجة ساقعة.. ليشد من أزرك في هذا الحر الرهيب.. أما غرناطة فالشوارع خالية تماما من المارة والسيارات.. مع أننا في عز الظهر.. وإشارة المرور مفتوحة.. والعسكري طفشان.. والمحلات مغلقة بالضبة والمفتاح.. لا أثر فيها للحياة.. وكأنها مدينة هجرها

اصحابها على سبيل العند..! احتجاجا على تشريفى إليها..
وعندما حاولت أن أسأل سائق التاكسى الذى ينقلنى من المطار للفندق..
اجابنى بعبارة طويلة لم أفهم منها شيئا.. فقلت له أسكته: جراتسيا..
وأدركت أننى أواجه مؤامرة من النوع الثقيل.. وميزتى الحقيقية.. أن
أنفى يشم المؤامرات على بعد ٢٠٠ ميل.. وما أن تقترب المؤامرة من
جاذبيتى المغناطيسية.. فتصبح على بعد مترين فقط.. حتى يفقد أنفى
حساسيته.. فاقع فيها مثل الشاطر.

واستبعدت طبعاً أن تكون حكومة الحزب الوطنى طرفاً فى المؤامرة..
بالاشتراك مع مدموازيل شركة الطيران.. لأنها حكومة طيبة وعلى نياتها..
ولابد أن تكون أمريكا شخصياً متورطة فى تلك المؤامرة اللئيمة.. التى
تسببت فى إخلاء المدينة من سكانها.. وقررت الهروب فى أول فرصة..
فى الأوتيل.. حاولت التفاهم مع أخيها موظف الاستقبال.. لكننى اكتشفت
أنه لا يتكلم سوى الأسبانية.. مع أنه «أوتيل» سياحى.. فقلت له
«جراتسيا».. ووجدت أنه من المستحيل أن أفهم وأن أكل وأشرب وأنام..
بكلمة واحدة.. هى جراتسيا.. فجلست فى بهو الفندق أضرب أخماساً فى
أسداس.

وعيب أسبانيا.. أنها تتكلم أسبانية.. أقصد أنها لا تتكلم سوى
الأسبانية.. فلا تتحدث الانجليزية لأنها فى حالة خصام معها.. بسبب
مشكلة جبل طارق.. الذى تحتله بريطانيا مع أنه جزء من الأراضى
الأسبانية.. ومن الواضح أن أسبانيا تقاطع اللغة الفرنسية.. على اعتبار
أنها فى حالة حرب.. بسبب التنافس التجارى.. وهى المنافسة التى بدأت
بحرب الخوخ.. عندما غزت أسبانيا أسواق أوروبا.. بالخوخ الأسباني
المبكر.. فطردت فرنسا من أسواقها التقليدية.. لأن الخوخ الفرنسى يتأخر
قليلاً.. وهاجت الدنيا.. وندد كتاب الحكومة الفرنسية.. بأسبانيا التى
سمحو لها بدخول السوق الأوروبية.. فإذا بها تتجراً وتتافس دولة عريقة

فى السوق مثل فرنسا ..

ومنذ أسابيع .. اشتعلت حرب السمك .. بين أسبانيا والفرنسيين .. الذين أخذوا علة ساخنة من صيادى أسبانيا .. الذين اكتشفوا أن الفرنسيين لا يكتفون بالصيد من مياههم الاقليمية .. وإنما يصطادون من المياه الأسبانية .. بشباك مخالفة للمواصفات من حيث طول الشبكة وسعتها .. فهاج الصيادون الأسبان .. وخرجت مراكبهم فى عرض البحر .. تهاجم مراكب فرنسا .. بل وأخذتهم العزة بالنفس .. فقاموا باختطاف سفينة فرنسية بمن عليها .. فى واقعة لا تكرر سوى فى شرقنا الأوسط السعيد ..

ولأن ريكم مع المنكسرين جابر .. فبيتما أنا واقع فى حيص بيص فى بهو القندق .. مسكين وحالى عدم .. أحاول أن أضع كلمة «جراتسيا» فى جملة مفيدة .. بما يعنى الأكل والشرب والنوم والفسحة .. اذا بخواجة انجليزى يدخل إلى البهر .. ويجلس أمامى .. ويقول لى بانجليزية سليمة: هاللو ..

وكدت أرقص قرحا .. وكدت أخذ الخواجة بالحضن .. لولا خوفى من مرض الايدز .. وحكى له عن مخاوفى من المؤامرة الأمريكانى .. التى أخلت المدينة من سكانها .. ومن إصرار كل من قابلتهم على الحديث بالأسبانى .. ضحك الخواجة بوقار .. ثم فسر لى الحكاية ..

والحكاية أن غرناطة تحترف النوم ظهرا .. نظرا لطبيعة الطقس الحار .. الذى يلعب دوره فى عاداتهم وتقاليدهم .. ومع أن أوروبا كلها تبدأ العمل فى الثامنة صباحا .. وحتى الخامسة عصرا .. وتتوقف ظهرا للغداء لمدة ساعة .. تقضيها فى الشوارع حيث محلات «التيك أواي» أو فى المطاعم .. فإن أسبانيا تختلف .. والعمل عندهم يبدأ فى التاسعة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر .. لتقف المحلات أبوابها .. ويهرب الناس إلى البيوت .. يتناولون طعام الغداء «البيتى» .. ثم ينامون ساعة أو ساعتين .. وفى السادسة .. تفتح المحلات والمصالح الحكومية أبوابها من جديد .. لينتظم العمل حتى العاشرة مساء ..

قال لى الخواجة: انك لو اردت أن ترى الأسباب على طبيعتهم.. فعليك بالعسير حتى ساعة العصارى.. فتتكسر حرارة الطقس.. ويبدأ المساء والسهرة..

وأما عن مشكلة اللغة.. فهي محولة.. لأن جميع عساكر البوليس فى أسبانيا.. يجيدون لغتين أجنبيتين على الأقل.. ومن المؤكد انك تستطيع التفاهم معهم بالانجليزية أو الفرنسية..
- هل فهمت يا جاهل؟!

والعبارة الأخيرة لم ينطقها الخواجة الانجليزى.. لكننى شعرت بها على طرف لسانه..



تحسرت على القاهرة زمان.. فى ساعة العصارى.. فغرناطة ويدون مبالغة.. هى صورة من القاهرة التى كنا نعرفها حتى الخمسينيات والستينيات.. الشوارع والأزقة طراز المبانى.. والناس فى الطرقات.. بل أن هناك منطقة اسمها القيصرية.. ولاحظ الاسم العربى.. هى صورة طبق الأصل من الغورية وخان الخليلى.. ذات الطابع الإسلامى الواضح.. وفانوس رمضان الذى نعرفه فقط فى الشهر الكريم.. يستخدمونه هنا طوال الوقت.. وهو معلق فوق النوافذ والبلكنات والمحلات.. ومشربيات القاهرة الفاطمية هى الطراز السائد للنوافذ.. والسيراميك فى مداخل البيوت والمحلات بنقوش اسلامية واضحة. وأبواب البيوت هى صورة مصغرة وبالكريون.. من بوابات القاهرة القديمة.. كباب الفتوح والمتولى.. والمطرقة برأس الأسد.. ورأس الثعبان.. على الباب..

بل إن البضاعة المفروشة فى أزقة القيصرية الملتوية.. هى نفسها بضاعة خان الخليلى.. مع لمسة أسبانية خاصة.. ومن الواضح أن هناك أصرارا وتشبهاً حقيقين بالطراز الإسلامى.. فالحى هو حى قديم.. يضم أكثر من مسجد تحولت فيما بعد إلى كتاتس.. ويضم مدرسة اسلامية كبيرة..

تحولت إلى جامعة في القرن الثامن عشر.. ويضم عددا من الحمامات الشعبية النادرة.. وقد أعاد الأسبان تجديدها..

ويعد أن اعترفت منظمة اليونسكو.. بأن غرناطة تضم عددا من الآثار الإسلامية الهامة.. منها قصر الحمراء الذي ستتحدث عنه فيما بعد.. قرر الأسبان تحويلها إلى متحف تاريخي مفتوح لتكون مزارا إسلاميا.. ومع أن غرناطة مدينة في دولة ليبرالية.. تؤمن بالحرية الشخصية.. فإنه ليس من حق صاحب المنزل أن يبيعه على مزاجه الخاص.. والمباني الجديدة.. تقام على نفس الطراز العربي القديم.. البيت من دور واحد أو دورين والقبة على السطح.. والشرفات عريضة الطراز.. والمشربيات على جميع النوافذ..

لا يملك الواحد منهم أن يفعل مثل الأخوان جيران مسجد سيدنا الحسين.. أو جيران الأزهر الشريف.. الذين يملكون الذوق والفلس والنفوذ.. بما يمكنهم من هدم البيت القديم ذي الطراز الخاص.. لتقام بدلا منه عمارة أسمنتية سخيفة الطراز.. دون أن يملك أحد أن يقول لهم تلت الثلاثة كام..

وانسجمت تماما وأنا أسير في حوارى القيصرية.. وشعرت بالفرح والانبساط وجو الأسرة الكريمة.. وأنا أرى الشحاتين والمتشردين وماسحى الأحذية.. بل وجامعى السبارس.. فهتفت من أعماق قلبي: سبارس.. شحاتين.. متشردين.. أحمدك يارب.. وتمنيت لو أن خالتي فى الدور الثانى.. قد أتحتتني بطشت غسيل.. أو حلة طيبخ بايت.. فوق أم رأسى.. لتكتمل السعادة.. ويدوم الانتشراح.. ولكى أشعر اننى أمشى فى حوارى السيدة والمنيرة.. بين ناسى وبقية أهلى.

وللحق فإن الشحات فى القيصرية.. هو توأم للشحات فى الحسين.. فهو يستجدى ويستعطف.. ويدعو لك نصف ساعة بعد أن تعطيه المطلوب.. وهو عكس شحات أوروبا.. الذى يشحت بالموسيقى.. دون أن يكلف خاطره بأن يقول لك لله: وفى لندن بالذات الشحات قليط.. يأتى إليك وهو لابس بدلة

بالشيء الفلانى.. ويشحت حسب التسعيرة.. فيطلب «جنيه استرليني»
عشان يفطر.. يعنى خمسة جنيهات.. بالعربى القصيح.. وبالسعر
الرسمى..

ولالأمانة.. فليس كل من فى القيصرية شحاتين وماسحى أحذية.. فهناك
شابات وبنات تشرح القلب.. وأفندية وبهوات وهوانم وهناك سائحو
مثلى.. وهناك أيضا مطاعم ومقاه جميلة.. وهناك أيضا رجال البوليس..
الذين هم يتكلمون لغات.. والذين مستعدون للقيام بشئون الترجمة من أجل
خطر عيون السياحة والسياح.

ولالأمانة.. فإن رجل البوليس الأسبانى.. خبير اللغات الأجنبية. كان
عظيم النفع بالنسبة لى.. وقد دخلت مرة أحد المطاعم لكى أتناول طعام
العشاء.. فاعتذرت لى صاحبة المطعم العجوز بأنها لا تستطيع أن تقدم لى
قهوة.. لأن الوقت وقت عشاء.. فقلت لها بلغة الإشارة.. اننى لا أريد فى
تناول القهوة.. واننى أريد فى العشاء.. ثم قلت لها لكى أبهرها:
جراتسيا..

فقلت لى بعصبية واضحة.. مفيش قهوة.. عشاء ويس.. فقلت لها مرة
أخرى.. إننى لا أريد فى القهوة.. وإنما أنا أطلب العشاء.. ثم قلت لها من
جديد: جراتسيا..

فخرجت إلى الشارع.. وعادت وفى يدها رجل البوليس.. وقد كان رجلا
عاقلا نبيها.. استمع لى مرة بالانجليزية.. ومرة أخرى بالفرنسية للتأكيد..
وقلت له اننى شرقت القهوة مرتين هذا المساء.. وكل ما أريد فيه هو أن
أتناول العشاء.. ولم انس طبعاً.. أن أقول له: جراتسيا..

طبطل على كطفى رجل البوليس برقة وحنان.. وتحدث مع السيدة..
يترجم لها ما أقول.. ومن الواضح أن ترجمته كان لها فعل السحر.. لأن
السيدة العجوز دخلت المطبخ بسرعة.. ثم عادت معها «اثنين قهوة»..
وفاتورة الحساب..



بنات ألف ليلة في قصر الحمراء



هبط طارق بن زياد إلى الأندلس.. بسفينة حربية أحرقها خلفه.. وهبطت أنا بطائرة جامبو.. لم أستطع إحراقها.. نظرا لاجراءات الأمن غير العادية.. ووقفت على الأرض الأسبانية أمتف.. وقد أخذتني النشوة: البنات من ورائكم.. والبنات من أمامكم.. فأين المفز؟! وقد سحرنى دفء البنات فى المطار.. بالشورت الساخن.. لمواجهة الحر الرهيب.. ومن قبلها أخذتني رقة المضيفات فى الطائرة.. وكرم الضيافة عندهن.. وقد التفت حولى ثلاث من المضيفات.. يتولين شئون الأكل والقهوة والمشروبات البريئة وغير البريئة.. وشعرت بالزهو والامتلاء.. فتمنيت الذهاب إلى التواليت.. لكننى تراجعت خوفا من أن تصحبنى واحدة منهن.. فى مبالغة غير مسبوقه.. فى كرم الضيافة.

وميزة البنت الأسبانية.. أنك معها تشعر بالانتلاف والاندماج بسرعة.. وتكاد تحس أن بينكما ودا وعشرة وحباً وخصاما وكلاما قديما.. وكأنها بنت الجيران.. أو زميلتك فى الجامعة أو الشغل.. أو ربما كانت ابنة عمك.. أو بنت السيدة خالتك.

وجمال البنت الأسبانية من النوع الهادىء المخصوص.. ويختلف تماما عن الجمال الأرستقراطى للبنت السويسرية.. أو الجمال الفاجر للبنت الفرنسية.. أو الجمال المتعالى للبنت الانجليزية.. والمهم أن بنات أسبانيا أكثر من رجالها.. وأنهن قد لعبن دورا هاما فى كتابة تاريخ أسبانيا.

والأرقام تؤكد أن من بين الأربعة ملايين مواطن أسباني.. هناك ٢٣ مليون أنثى.. فى مواجهة ١٧ مليون ذكر.. يعنى عندهم والحمد لله.. فائض

فى النساء.. يقدر بستة ملايين واحدة ست.. ويقولون إن هذه مشكلة حقيقية.. ولو تزوجت الستة ملايين بنت.. من ستة ملايين ولد أجنبى.. لتسبب الوضع فى اختلال الخريطة السكانية الاجتماعية هناك..

وزمان.. تسبب الزواج من أجنبى.. فى إشعال أول ثورة شعبية بعد فتح الأندلس بأسابيع قليلة.. والحكاية أنه بعد استقرار الأوضاع فى الأندلس.. عقب فتحها على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير.. قام والى إفريقيا القائد موسى بن نصير.. بتعيين ابنه عبدالعزيز.. واليا على البلاد.. وأحب عبدالعزيز بنتا أسبانية بيضاء فتزوجها.. ومن الواضح أنها كانت جميلة جدا.. لأنها أقتعت عبدالعزيز.. بأن يتصرف بشكل غير حضارى.. بمقاييس الحضارة زمان.. وأن يتبنى قضايا المرأة فى وقت مبكر.. لأنه مشى معها فى الطريق.. ويدها فى ذراعه.. وكانت تحضر معه الولائم والعزومات وعشاء العمل.. عندما يستقبل الملوك وسفراء الدول الأجنبية.. كانت تشارك فى اللقاءات.. وفى حفلات الاستقبال الراقصة.

فكانت الثورة الشعبية التى اشتعلت بشدة.. عندما ثارت النساء على أزواجهن.. يطالبن المعاملة بالمثل.. والمساواة مع خواجهات زوجة والى.. الجلوس والأكل مع حضرة الزوج.. بدلا من البحلفة إليه وهو يتناول الطعام وحده.. و.. ثار الأزواج.. وخرجوا إلى عبدالعزيز.. وضربوه ضربة رجل واحد.. وحطموا القصر على من فيه.. فمات الرجل الذى طبق المساواة قبل الأوان.. وفى وقت لم يكن مناسبا بالمرّة.

بل أن أميرة أسبانية جميلة.. كانت هى السبب الحقيقى وراء غزو أسبانيا.. على يد طارق بن زياد.. وتؤكد حكايات التاريخ الأسبانية.. أن مدينة سبته المغربية.. كانت تتبع أسبانيا من الناحية السياسية.. وكانت أسبانيا تختار أحد وزرائها لحكم المدينة المغربية.. وحدث أن بعث الوزير بابنته الصغيرة.. لتتربى فى البلاط الملكى الأسبانى.. ولتأخذ حظها من الذوق والأدب.. لكن ملك أسبانيا واسمه «لذريق» أعجب بالبنت الأميرة..

واعتمدى على عفافها .. فبعثت لأبيها سرا .. تخبره بما حدث .. فثار الرجل .. واستتجد بصديقه الأمير طارق بن زياد .. واتفق معه على غزو أسبانيا عقابا للملك .. وكشف لصديقه طارق .. عن نقاط الضعف والقوة فى الجيش الأسباني .. و.. نجح طارق فى الغزو .. واجتياح الاراضى الأسبانية .. من جانبها الشرقى .. ثم لحق به موسى بن نصير من الجانب الغربى .. ليطوقا جيش الملك .. الذى فر هاريا ..

ولا تنسى الحكايات الأسبانية .. أن تنصف طارق بن زياد .. فتؤكد أنه كان قائدا عظيما .. ومن غير المعقول أن يحرق مراكبه .. وما حدث بالفعل .. هو أنه أبعد المراكب عن الشاطئ .. لكنه لم يحرقها أبدا .. وإلا تعرض لستولية جسيمة عند قيام ليجان الجرد .. بجرد عهده من المراكب والسفن .. ومن الواضح أن بنات أسبانيا .. هن السبب وراء بناء قصر الحمراء .. أو الهمبرا كما ينطقونها فى أسبانيا .. ومن الواضح أن الوالى وقد سمع بما حدث لعبد العزيز بن موسى بن نصير .. وعن شرف بنات أسبانيا .. الذى هو مثل عود الكبريت .. من الواضح أن الوالى .. قد قرر أن يمارس بعض الحرية الشخصية .. بعيدا عن عيون المتطفلين من النساء والرجال .. فكان التفكير فى قصر الحمراء .. الذى بنى على ريو عالية تطل على نهر «الدارو» ويشرف على المدينة القرية.

قصر الحمراء .. تحفة تاريخية نادرة .. بشهادة اليونسكو الذى ساهم فى ترميم القصر الذى تعرض للحريق فى أواخر القرن الماضى .. والذى هو أقدم أثر اسلامى على مر التاريخ .. كما قام اليونسكو بترميم قلعة القصبة .. التى تحمى القصر من الأعداء وقت الشدة .. وقام أيضا بالمساهمة فى تجميل حديقة القصر .. التى يعتبرها أجمل حديقة فى العالم .. وقد سمي بالحمراء .. لأن الطينة التى استخدمت فى بناء الحوائط .. حمراء اللون .. ويقولون أيضا .. أنه سمي بالحمراء .. لأن أنواره المتلألئة .. لم تنطفى يوما .. على مدى تاريخه الطويل.

ويحتاج الزائر مثلى.. إلى يومين أو ثلاثة.. ليطوف بأرجاء القصر.. ويقاعاته الكثيرة.. ويلاحظ نقوشه ومنماته.. لكن الملاحظة السريعة.. أن الجملة الأثيرة التي تكتب على الحوائط وفي النقوش.. بالخط الكوفي الجميل هي: لا غالب إلا الله.. ولا توجد كلمتي: الله.. محمد التي نعرفها في المساجد والنقوش الإسلامية.. ومن الواضح أن القصر قد تأثر بالروح الشيعية الفاطمية لأهالي المغرب. رغم الخلاف الحاد بين الشيعة وحكام الأندلس.. وهو الخلاف الذي تطور إلى حرب في أكثر من مناسبة..

ولأننى لا أجيد فنون وصف الحوائط والأعمدة والأسقف والنقوش.. فإننى أكتفى بالقول.. إن القصر هو صورة ناطقة بالعز والبذخ والفخفة والأبهة.. وهو ما بهر سفراء الدول الأجنبية الذين ذهبوا يقدمون فروض الطاعة والولاء.. للحكام والخلفاء.. الذين تربعوا على العرش الأندلسي.. لأكثر من سبعمئة عام.. وفرضوا نفوذهم وسلطانهم حتى الامبراطورية البيزنطية.

لكننى لا أدرى حقيقة.. ما العلاقة بين الفلوس وبين الترف إلى حد السفه.. وتستطيع أن تكون غنيا دون أن تستفز الآخرين.. والحكاية لا ترتبط بحكام الأندلس وحدهم.. لكنها ترتبط بالعصر.. بدليل الكنائس والكاتدرائيات التي بنيت عقب سقوط العرب.. والتي تنطق بالعز والغنى وبالشعب بعد طول جوع.

في قصر الحمراء.. قاعة للاستقبال مساحتها ٤٤٤ مترا.. وبها ١٢٤ عمودا من الرخام وارتفاع سقفها عشرون مترا.. وهذه القاعة بالذات.. هامة جدا.. فقد مارس الحكام العرب أمور الحكم فيها.. وعقدوا الاتفاقيات والمعاهدات.. وخططوا وتمكنوا من غزو نصف أوروبا.. واستقبلوا فيها السفراء والملوك ومندوبى الدول الأجنبية.

ويشاء التاريخ.. أن تشهد نفس القاعة زوال الحكم العربى.. وفيها وقع آخر الخلفاء وثيقة التنازل عن العرش.. بسقوط غرناطة فى نهاية القرن

الخامس عشر.

فى نفس القاعة.. خلعت إيزابيل ملكة أسبانيا مجوهراتها وتاجها الملكى.. وقدمتهما إلى كريستوفر كولبوس.. للمساهمة فى تمويل رحلته إلى المجهول.. لاكتشاف بحر الظلمات.. وغزو القارة الأمريكية بعد ذلك.

ويصر الظلمات بالمناسبة.. هو الاسم الذى كان يطلق على المحيط الأطلنطى.. وقبل ميلاد كريستوفر كولبوس بمئات السنين.. قام القائد العربى عقبة بن نافع باقتحام بحر الظلمات بحصانه.. ومشهرا سيفه.. مؤكدا أنه مستعد لغزو البحر.. لولا أنه يعلم أنه لا توجد وراءه أراض يستطيع فتحها.. ونسى أن غزو البحر لا يتم بالحصان والفرس.. وإنما بالراكب والسفن..

ولكن من المؤكد.. أن عقبة بن نافع معذور.. لأن العالم احتاج إلى ٩٠٠ سنة جديدة.. ليطور الراكب والسفن.. ويكتشف الجديد فى العلم والجغرافيا.. بما مكن كولبوس بعد ذلك.. من اقتحام بحر الظلمات.

بسقوط العرب فى نهاية القرن الخامس عشر.. لم يتوقف دور قصر الحمراء.. وقد مارس الأوروبيون الحكم من داخل القصر الجميل.. إلا أنهم وقعوا فى خطأ تاريخى خطير.. عندما تصوروا أن حمامات القصر الكبيرة.. هى قاعات للطعام.. فمدوا فيها الموائد الضخمة.. وعزموا ضيوفهم للأكل داخل الحمام.. وهو خطأ تاريخى استمر عدة قرون.. إلى أن تم تصحيح الخطأ بعد ذلك..

على أن أحمل ما فى قصر الحمراء.. هى تلك المنطقة المخصصة للحريم والى يطلق عليها «الحرمانية» وفيها عرفوا مبكرا شعار.. ممنوع الاقتراب.. ممنوع التصوير.. ولم يكن مسموحا لرجل بمجرد تخطى الخطوط الحمراء.. الرجل الوحيد.. هو حُضرة الخليفة.. الذى كان مسموحا له بالجلوس على حدود المنطقة.. داخل غرفة علوية خاصة.. يستطيع منها أن يراقب ما يدور داخل «الحرمانية» خصوصا ما يدور داخل

حمام النساء..

وفى الحرمانه.. توجد «البركة» وهى حمام سباحة كبير بطول ٣٥ مترا.. وعرض ٢٣ مترا.. وفيها تستحم الجوارى والحريم.. خصوصا فى حر الصيف السخيف.. بينما يجلس حضرة الخليفة فى غرفته العلوية.. يراقب المنظر الجميل.. وفى يده تفاحة كبيرة.. يستخدمها فى الوقت المناسب.. عقب انتهاء الحريم من الحمام.. يغادرن «البيسين» فيلقى الخليفة بالتفاحة إلى من يختارها من الجوارى.. طبقا لموهبتها فى السباحة وأشياء أخرى لتصعد إليه فى غرفته.. لتتلقى التهنئة من سيادته.. وتنال شرف اللقاء السامى..

وكم تمنيت.. لو ركبت آلة الزمن الجهنمية.. لأعود كم مائة سنة إلى الوراء.. إلى العصر الخصيب.. بعيدا عن دوشة المواصلات.. وزحمة حمامات السباحة.. وساعتها سأجلس فى حجرة حضرة الخليفة.. وفى حجرى اثنتين كيلو تفاح.. من الحجم الصغير.. وحتى يزيد العدد.. وألقى به واحدة واحدة.. لمن التمس فيهن مواهب خاصة بالسباحة والغطس.. والنوم فى الماء..

على أن المشكلة الحقيقية.. أن نظرى شيش بيش.. وأراهن أننى سأخطئ.. وأننى سألقى بالتفاحة لأحد الحراس الأشداء.. الذى سيصعد لحجرتى.. و.. تبقى مصيبة.

وليس قصر الحمراء فقط.. هو مصدر الاهتمام الأسبانى.. فهناك العديد والكثير والمتنوع.. من الحمامات الشعبية والقصور القديمة.. فى محافظات الأندلس.. التى تبلغ ثمانى محافظات.. وهناك فى مدينة قرطبة مثلا.. المسجد الكاتدرائية.. وهو إحدى عجائب الدنيا.. لو جاز التعبير.. فيعد سقوط قرطبة فى أيدي العرب.. قاموا بشراء نصف كاتدرائية قديمة.. لتحويلها إلى مسجد..

ويدخل الأسبان إلى الدين الإسلامى.. قام العرب بشراء النصف الآخر

من الكاتدرائية.. لتصبح مسجدا.. ولكن بتولى الخليفة عبدالرحمن الداخل.. الشهير بصقر قريش الخلافة.. وإعلان نفسه خليفة أمويا على البلاد.. قرر تحويل المسجد.. إلى مسجد كبير.. على طراز المسجد الأموي فى دمشق..

وخلال عهد عبدالرحمن الداخل.. وعهود أخرى.. تمت توسعة المسجد.. ليصبح هو المسجد الأكبر بين البلدان الاسلامية.. وأطلق عليه اسم.. المسجد الكبير.

ولكن بسقوط قرطبة.. واستيلاء المسيحيين عليها تم تحويل المسجد إلى كاتدرائية.. لكن المسلمين استولوا على قرطبة مرة أخرى.. فأعيد المسجد.. وهكذا.. بتكرار السقوط والتحرير.. أصبح المسجد والكاتدرائية معا.. داخل نفس المبنى.. الذى تقوم الحكومة الأسبانية الآن بتجديده.. على نفس الطراز القديم.. على أن ما أعجبنى حقا.. هو تلك الأعداد الضخمة من الصبيان والبنات.. الحريصين على زيارة الآثار الاسلامية.. على اعتبار أنها تمثل تاريخهم البعيد..

ولكن ما غاظنى من البنت الأسبانية.. هو ذلك الإصرار الغريب.. على التدخين وبشراهة.. وطوال الوقت.. وفى جميع بلدان أوروبا.. لم أرى بنتا مثل البنت الأسبانية.. تدخن وهى تسير فى الطريق العام.. وهى ليست بنتا واحدة.. بل ظاهرة عامة.. أن تسير البنت وفى قمها «عقب» سيجارة.. مع أن هناك اتجاهها عاما فى أوروبا كلها لمحاربة التدخين.

بل إن أسبانيا ذاتها تشهد الآن موجة من الرفض للتدخين.. حتى فى الأماكن العامة.. وقد جلست فى إحدى الحدائق أتأمل الأحوال وأجد نشاطى.. وأشعلت سيجارة.. بحكم العادة.. فإذا برجل يندفع نحوى من أقصى الحديقة.. وأدركت أنه أحد المحافظين على البيئة.. عندما خاطبني بلهجة غاضبة.. وهو يشير إلى سيجارتى.. وتعجبت للرجل الغلس.. الذى اختارنى بالذات.. ليحملنى مسئولية ثقب

الأوزون.. فتشاجرت معه بالعربي القصيح.. وتشاجر معي باللغة
الاسبانية . واحتاج الأمر إلى أولاد الحلال.. من خبراء اللغات الأجنبية
لوقف الحرب المشتعلة بيننا.. وفي النهاية أفهمني أولاد الحلال.. أن الرجل
ليس من رجال البيئة.. وإنما هو «خرمان» وكان يريد أن يستلف مني
سيجارة!!..

دخول
الفلان مع الشارب



الملكة صوفيا.. هى أشهر رجل فى أسبانيا..
ومع أنها ملكة أسبانيا الجميلة.. إلا أنهم يؤكدون أنها بألف رجل..
وأن كلامها لا يمكن أن ينزل الأرض.. فهى تلتزم بما تقوله وتفعله..
وعندما فكر ابنها الأمير فيليب فى الزواج من واحدة من بنات الشعب..
لم تمنح صوفيا.. ووقفت فى صف الأب.. ضد رغبة الوالد.. الذى
يصر على زواج ولى العهد من إحدى أميرات أوروبا.. خصوصا انهن
على قفا من يشيل..

ولهذا.. فإن زوجها الملك خوان كارلوس.. هو المادة المفضلة لرسامى
الكاريكاتير.. وكتاب الفكاهة والمسخرة.. عكس مدام صوفيا.. أو «دينا»
صوفيا.. كما ينادونها.. ويؤكدون أنها حبيبة الملايين..

صوفيا بالمناسبة.. تكاد تكون الوحيدة التى ترطن بسبع لغات.. هى
الأسبانية لغة بلدها.. واليونانية على اعتبار أن جدها ملك اليونان..
والفرنسية لغة الأرستقراطية والمجتمعات الراقية.. والانجليزية لغة
السياسة والتجارة والمال.. والاطالية لأنها الأقرب للأسبانية.. والعربية
لأنها عاشت فى مصر وتخرجت فى مدارسها.. ثم أنها تعرف بعض
الألماني..

تتصان «صوفيا» إلى الناس الغلبة.. خصوصا العجر.. لأن غرناطة
هى مركز تجمع العجر فى أسبانيا.. وهناك اكبر جالية عجرية فى جميع
أوروبا.. ومن بين ٤٠ مليون مواطن أسباني.. هناك مليون عجرى..
يتمركزون فى غرناطة.. حيث جبال «سييرا نيفادا» على بعد ٦٠
كيلومترا.. وحيث البحر المتوسط أو «اليرا» على بعد ٦٠ كيلومترا
أخرى.. أى أن العجر يملكون البحر والجبال.. ويملكون الليل أيضا..
للرجل العجرى.. مثل أسد الغابة.. يمارس فضيلة الكسل اللذيذ.. لا
يحب العمل.. ويفضل النوم حتى العصر.. بينما تقوم «الدام» بهام
العمل طوال اليوم.. فى التسول وضرب الودع والنشل وأعمال أخرى..

وفى الليل.. تبدأ ورديّة العمل للرجل الغجرى.. الذى يسيطر تماما على مملكة الليل.. ودينا الليل.. ونصف مطاعم ومقاهى وبارات المدينة الليلية. مملوكة للغجر.. يمارسون فيها نشاطهم العلنى.. أما النشاط السرى.. خصوصا تجارة المخدرات.. فحدث ولا حرج..

ومع أن أسبانيا لا تعاني من مشكلة المخدرات.. كما باقى دول أوروبا.. إلا أن البطالة والفراغ.. و٢ ملايين عاطل عن العمل.. يهددون المجتمع الأسباني.. بانتشار المخدرات وجعله قطعة من أوروبا.

وقد فكرت «صوفيا» فى حل جذرى للمشكلة.. فوجدت أن الحل الأمثل هو تحسين أحوال الغجر.. فعقدت اجتماعات مع ممثليهم وملوكهم.. لأن للغجر ملوكا وأمرأ.. وفيهم السادة والعبيد.. والأغنياء والفقراء.. فى مجتمع مغلق منعزل.. يصعب اختراقه وفهم قوانينه.

ومشكلة الغجرى الحقيقية.. أنه بطبعه لا يخضع للنظام.. ولا يلتزم بالمواعيد.. ولا يلتحق بالمدارس.. ويكره الجدران المغلقة.. يفضل السكن فى كهوف بالجبال والتلال المحيطة بالمدينة.. يمارس فيها حياته بالقطرة.. فيتزوج وينجب أطفالا.. وفى أوقات فراغه.. يرقص الفلامنكو.. رقصة الغجر المفضلة..

وقد وافق الغجر على دعوة الملكة «صوفيا» بالتنازل عن تجاراتهم المنوعة.. ووافقوا على التخلّى عن مملكة الليل السرية.. والاكتفاء بالمملكة العلنية.. حيث المطاعم والبارات.. ورقصة الفلامنكو.. التى حولوها إلى رقصة سياحية.. ووافقوا على الاندماج فى المجتمع والتخلّى عن الكهوف.. والالتحاق بالمدارس.. واشتروا أن يعيشوا معا فى مجتمعاتهم الجديدة.. بحيث يتم الاندماج بالمجتمع تدريجيا..

و.بالفعل.. قامت الحكومة الأسبانية ببناء أحياء بأكملها.. يسكنها الغجر.. وزودتها بوسائل المعيشة الحديثة.. وأعلنت «صوفيا» أن مشكلة الغجر.. فى طريقها إلى الزوال..

ولكن.. لأن الطبع يغلب التنطع.. فلم تمر سوى شهور قليلة.. حتى تخلّى الغجر عن مساكنهم الجديدة.. فباعوا الأبواب والشبابيك.. ونزعوا الحففيات والأحواض.. وأقاموا الخيام أمام بيوتهم الحديثة.. وعاشوا فى «تبات ونبات» فى الخيام.. فى مناطق يصعب اقتحامها والدخول إليها.

وفى اسبانيا.. من المعروف.. انك لو أردت عقاب رجل البوليس.. أو ساعى
البريد.. فعليك بنقله إلى مدينة الغجر.. حيث الداغل مقفود.. والخارج مولود..
و.. هكذا.. عادت ربما لعانتها القديمة.. وعاد الغجر إلى سيرتهم الأولى..
فيما يعد نكسة حقيقية لمشروع الملكة صوفيا.. لتحسين أحوال الغجر..
والقضاء على تجارة المخدرات..

على أن أجمل مافى الغجر.. هو رقصتهم الفولكلورية الشهيرة.. برقصه
الفلامنكو.. وهى رقصه جميلة فعلا . تعتمد على الايقاع السريع للجيتار.. مع
تصفيق الأيدي وببيب الأقدام.. والغناء الحزين عالى الصوت.. وهى رقصه فيها
شموخ وكبرياء.. تحكى غالبا عن قصة حب فاشلة.. أو عن حكايات الرحيل
والتهجير.. ومعاناة الغجرى مع الدنيا.. وعدم الفهم المشترك مع أهلها.
ولشاهدة الفلامنكو. عليك بدخول أحد المقاهى أو البارات الليلية.. فى حى
«الباييسين» حيث الدخول والفرجة بالمشاريب.. فتطلب مشروباً.. وتجلس
تتفرج.. وتشارك بالرقص أحيانا.

وقد سحرنى الوجد.. وأنا أتفرج على الفلامنكو.. ولطشتنى النشوة.. فقررت
الخروج للطريق العام.. لأدعو الريح والجاءى.. لمشاهدة الفن الأسباني
الأصيل.. وعلى حسابى الخاص.. لولا أننى تذكرت بسرعة أن ثمن المشروب
حوالى ثلاثين جنيها مصريا.. فتراجعت عن الفكرة المجنونة . واكتفيت بالفرجة
والرقص والغناء..

على أن الغجر الذين يحكمون مملكة الليل فى منطقة «الباييسين» ليسوا
وحدهم.. فهناك مملكة أخرى ليل فى الحى التجارى.. بالقرب من الجامعة..

حيث العشرات من المقاهى والبارات والمطاعم الشعبية الرخيصة.
وإذا كانت غرناطة تعاني من الحر الخانق نهارا.. فمن الطبيعي أن تعرف
السهر بعد العاشرة مساء.. حيث تستقبل زبائن الليل.. شبابا وشابات.. من
الجامعة غالبا.. بالجينز والميني جوب وفساتين السهرة.. فاللوضة الآن.. هى
اللاموضة.. السمك.. اللبن.. التمر هندي.. ولا أحد يقدر على تنفيذ ذلك.. سوى
الشباب.

وفى المقاهى تبدأ تجمعات الشباب.. ويبدأ الضحك والدوشة والرقص
والسجائر.. والاتصالات.. لا فارق بين ولد وبنت.. ويا سلام على منظر القهوة
فى الرلحة صباحا.. وهى تلطع بالكلام والمناقشات.. وقد ازبحمت تماما..
فوقف الشباب على النواصى.. وسيارة تركن على الرصيف.. وصوت الموسيقى
ينبعث عاليا من الداخل.. والبعض يرقص.. والرقصة جريئة ضاحكة.. تشبه
الفلامنكو.. لكنها ليست حزينة.. جاءت من إقليم سيفيليا.. أو «أشبيلية» المدينة
العربية القديمة.

ولعلمكم.. فلن شباب أسبانيا.. برغم الرقص والسهر والصعلكة والصياغة..
هو أفضل شباب أوروبا.. دليل الأرقام والاحصائيات.. فالمخدرات التى تلقى
الملكة صوفيا.. هى الأقل استهلاكاً فى أسبانيا.. والايذ نسبته هناك أقل من أية
دولة أوروبية.

وإذا كان الشباب يعانون من البطالة بعد التخرج.. فأوروبا الموحدة تفتح
أبوابها.. وشباب وشابات أسبانيا يغزون بلدان أوروبا.. مسلحين بالعلم
والشهادة الجامعية.

ويا عبنى على الشباب هناك.. حيث الحرية والانطلاق.. وياحسرة على
الشباب فى مجتمعات أخرى.. وقد حاصرناهم بمجموعة من الأفكار والتقاليد
البالية.. والقيم الفاسدة.. التى قلستناها.. ورفعناها لمرتبة النصوص الدينية..
وسهر الولد عيب.. وخروج البنت وحدها مصيبة.. والصرمحة والفرقة خروج
على التقاليد.. والضحك من غير سبب قلة أدب.. وإذا اجتمع ولد وبنت كان

الشیطان ثالثهما .. هكذا .. خبط لرق.

ياسلام على منظر الأولاد والبنات فى أسبانيا .. وهم يتجاللون .. ويتكلمون ويتتافرون .. دون عقد أو خوف أو حساب .. وهم شباب لا يعتمد على بابا فى المصروف والمعيشة .. لأنهم يعملون فى سن الثامنة عشرة فى أعمال صغيرة .. تغطى مصروفات الجامعة .. وبسهرات «الويك إند» .. ولهذا فإن ثقتهم فى الغرب بالشباب بلا حدود .. وهى ثقة بالفعل .. لا بالكلام .. بليل أنهم اختاروا ولدا كبيرا عمره ٤٥ سنة واسمه كليتون .. لرئاسة أمريكا .. أكبر دولة فى العالم .. ومن قبله اختاروا جون ميجور لبريطانيا وعمره ٤٦ سنة واختاروا «لوران فبایوس» ليحكم فرنسا وعمره ٣٩ سنة ..

أقصد أن الأمم تتقدم على يد الشباب .. والغرب بالذات تقدم كثيرا عندما استفاد بحماسة الشباب وطاقاتهم على العمل .. دون أن يقول لولحد منهم .. عيب يا ولد .. أكبر منك بيوم .. يعرف عنك بسنة!!

الجميل فى الحكاية .. أن الشباب لا يسهر وحده .. ولكن العولجيز أيضا .. والآباء والأمهات يسهرون كذلك .. ولكن أمام البيوت .. وفى غرناطة .. حيث يفضلون البيت من طابق واحد .. أو طابقين .. يهرب الناس من حر الصيف ليلا .. إلى الشوارع أمام بيوتهم .. فنجد العائلة وقد رصت الكراسى والموائد أمام باب البيت .. تتفرج على التلفزيون .. أو تتناقش وتتكم مع الجيران فى البيت المجاور .. انتظارا لعوبة الابن أو البنت السهرانة فى وسط المدينة.

البيت الأسباني بالمناسبة .. له طابع خاص .. ويشبه بيوت الفلاحين عندنا .. حيث يتكون البيت من عدة حجرات تطل كلها على حوش دخلي .. اسمه «الباثيو» .. وتعيش العائلة فى بعض الحجرات .. وتبقى البعض الآخر خاليا .. استعدادا لزواج الأولاد .. فإذا ما تزوج الولد أو البنت احتل إحدى حجرات المنزل .. ولهذا لا يشعر الوالدان أبدا بالوحدة .. طالما أنهما على قيد الحياة .. ولهذا لا يعرفون فى غرناطة بيوت العولجيز والمسنين .. ولا يعرفون أبدا .. الطبيب النفساني.

تصوروا!!



الخبز والحببات وما سبيل



شعرت أننى فرحان بشبابى.. وأنا أتمخطر بالمايوه.. حول حمام السباحة فى الفيلا الأنيقة.. مثل أخونا ريدج.. بطل «الجرى» والجميلات.. ويصحبني المرحومة كارولين وهى عريانة.. والولد ثورن اللئيم يختلس النظر والبحلقة من وراء شيش البلكونة.. والغيرة تنهش قلبه.. وماما ستيفانى تطنش عن الحكاية كلها.. ومخها مشغول بمقلب جديد من مقابلها لبروك المثيرة.. التى أحبها.. ولا أنام الليل من أجل خاطر عيونها.

وحمامات السباحة فى البيوت على قفا من يشيل.. رغم أزمة المياه فى أسبانيا.. وهى الأزمة الحادة.. بسبب جفاف الأنهار الصغيرة.. وهو جفاف يشبه الجفاف الإفريقى.. ولولا الملامة.. ولولا أنها أسبانيا الأوروبية.. لخرجت علينا وكالات الأنباء العالمية.. بحكايات عن التصحر والتشرد والمجاعة.

وتلطم الحكومة هناك خدّها كل يوم.. بسبب ذلك الجفاف الذى يتسبب فى خسائر بالمليارات.. فالجفاف صيفا.. يؤدى لخسارة محصول الزيتون.. المحصول الأول فى أسبانيا.. ويسبب حرائق الغابات.. التى تكلفهم الشئ الفلانى.. فضلا عن تلوث البيئة.. وجفاف الشتاء.. يعنى تدهور الموسم السياحى للترحلق على الجليد فى جبال «سييرا نيفادا».. وخصوصا أن بطولة العالم للترحلق على الجليد.. تقام هناك فى يناير القادم..

ولا تستطيع الحكومة مواجهة تلك الظاهرة الطبيعية.. التى

لا تحدث في إسبانيا فقط.. وإنما في جنوب فرنسا.. وجنوب إيطاليا.. وتكرر على مدى السنوات الأخيرة.. والتي سببها اختلال المناخ.. وتغير الطقس.. بسبب ثقب الأوزون الملعون.. وإذا كانت حكومتا فرنسا وإيطاليا.. تواجه الظاهرة بالمطر الصناعي.. فإن اليد القصيرة.. وضعف الميزانيات تحول دون مواجهة الظاهرة في جنوب إسبانيا..

وإذا كانت الحكومة تقف عاجزة أمام الجفاف في الجبال والغابات.. فإنها تستطيع التصرف في المدينة.. وقد أقامت الحنفيات العمومية في الميادين.. لمن لا يستطيع شراء المياه المعدنية.. لزوم الشرب وطهو الطعام.. وأهم كلمة يتعلمها السائح مثلى في إسبانيا.. هي كلمة «أكوا» يعنى ماء.

والحكومة هناك.. ليست مكسوفة.. أو مصابة بالنفخة الكدابة.. وهى تعلم بوضوح.. وبالفهم المليان.. للشعب والسياح.. إن مياه الحنفيات في البيوت ملوثة جدا.. لا يمكن ولا يجوز الشرب منها.. وأن من يرغب فى شرب الماء.. فعليه بالوقوف طوابير.. أمام الحنفيات العمومية.. أو شراء «أكوا» من السوبر ماركت..

وبالرغم من أزمة المياه.. إلا أن حمامات السباحة الخاصة.. فى البيوت والفيلات.. منتشرة جدا.. وهى ليست ليللا على العز أو للغنى.. أو التجارة فى البودرة.. أو غزو السوق السوداء.. ولكنها دليل حقيقى على الحر الرهيب..

والحكومة هنا ليست مسئولة عن تطهير مياه حمامات السباحة.. وهى المياه التى تأتى أصلا من المجارى العمومية.. وهى تكتفى بضخ المياه فى الحنفيات.. وعلى كل صاحب فيلا.. أن يقوم بنفسه وعلى حسابه الخاص.. بعمليات التطهير والتعقيم.. والغاوى ينقط بطاقيته.. كما تقول الفيلسوفة صباح..

وقد أتاحت لى فرصة العوم والبليطة فى حمامات السباحة الفخمة.. التى هى أصلا من مياه المجارى المعالجة.. عندما تعرفت بطريق الصدفة.. على خواجه أسبانى.. يتكلم العربية بطلاقة.. وبالعامية المصرية.. وقد تصورت وتعاملت معه فى البداية.. على أنه مصرى مثلى ومثلك.. لولا أنه أكد لى أنه أسبانى أبا عن جد.. وأنه عاش فى الاسكندرية مع والده وأمه.. حتى منتصف الستينات.. ثم مات أبوه.. وتزوجت أمه.. فهجر الاسكندرية وهو ابن السابعة عشرة.. وجاء إلى أسبانيا.. يجرب حظّه..

وفى الحقيقة.. فإن الخواجه الأسبانى الاسكندرانى.. واسمه «البرتو» هو الذى سعى للتعرف على محسوبكم.. بعد أن ذاع صيتى.. وأصبحت لى شعبية جارفة.. وصرت أشهر من نار على علم.. فى حوارى القيصرية.. وقهاوى البايسين.. ومطاعم القصبة.. باعتبارى طفلا معجزة.. وسائحا ذا كرامات.. لا يتكلم من لغات الدنيا.. سوى لغة الإشارة.. ومع هذا صرت من أهل البيت.. وأصبح لى أصدقاء وصديقات ومعارف وشيلة كبيرة.. أعيش معهم.. وأضحك وأفرش وأمشى فى الأسواق مرحا مبسوطا فرحانا.. وقد صار البساط أحمدي.. بفضل الناس والجماهير العريضة التى التفت حولى وأحببتنى.. تماما كما تحب جماهير سيدنا الحسين.. الخواجه جون.. لمجرد أنه ياكل فول وفلفل.. ويدخن المعسل.. ويقول سلامو عليكم..

تعرفت على الخواجه الأسبانى ظهرا.. وتصعلكت معه عصرا.. فطاف بى حوارى وأزقة غرناطة التى لا يعرفها أحد.. ورأيت واحدة تريح لجاراتها بكل لغات العالم.. ومنها اللغة الاسكندرانى.. ذات الحركات والإشارات والشهقات المعروفة.. وفى المساء.. عزمنى الخواجه «البرتو» على السباحة والعشاء فى

منزله الفخم.. وعرفنى بابنته الصغيرة.. التى تعيش معه بعد أن طلق أمها.. وعرفنى أيضا بصديقات البنت الصغيرة.. التى تشبه المرحومة كارولين.. والتى لا يزيد عمرها على عشرين عاما.. وتنادينى بكلمة «أونكل».

البرتو الأسباني.. يشغل فى «البيزنس» فى شركة مشهورة.. لها فروع فى العديد من العواصم والمدن الكبرى.. فى أوروبا وأمريكا والعالم الثالث.. ومجالها هو التجارة فى كل شىء.. بدون كسوف أو خجل.

وقد تخصصت الشركة لفترة ما.. فى شغل السمسة.. فى الصفقات التجارية المتبادلة بين الدول.. ومثلا تعقد كينيا اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتى.. تعبيراً عن الود والصداقة بين الشعبين.. قيمتها ٢٠ مليون دولار.. ويموجبها توريد كينيا للاتحاد السوفيتى شايًا وتوابل.. وتستورد معدات صناعية.. ولأن كينيا لا ترغب فى المعدات السوفيتية.. ولأن الاتحاد السوفيتى لديه فائض فى الشاي.. فتقوم شركة الخواجه «البرتو» بالعمل.. فتستورد الشاي الكينى بخصم محترم.. وتدفع لكينيا فلوسها «كاش» بعد تحصيل السمسة التى قد تصل إلى ثلث أو نصف المبلغ الأسمى.. وفى نفس الوقت تستورد المعدات الروسى بخصم آخر.. وتدفع للاتحاد السوفيتى كاش بعد خصم السمسة.. ثم تقوم بتوريد الشاي والمعدات لدولة ثالثة أو رابعة.

زبائن شركة «البرتو» من حكام دول العالم الثالث غالباً.. التى تطمح فى الحصول على الفلوس نقداً.. لزوم استيراد السيارات وأدوات الرفاهية.. وقد أكد لى أن من زبائنه دولا عربية مجاورة لمصر.. بل إن مصر ذاتها.. كانت من زبائن الشركة.. فى وقت من الأوقات.

«البرتو» الأسباني مهموم جدا.. بمشكلتين.. الأولى تدهور التكنولوجيا الأسباني التي لا تجد حلا سهلا لمسألة تعقيم وتنقية المياه في حمام السباحة الذي يملكه.. والمشكلة الثانية هي ابنته «كارلا» التي هي مثل لهطة القشطة في المايوه البيكيني الساخن.. والتي ليس لها صديق.. أو «بوى فريند».. لأن البنت متعلقة بوالدها جدا.. وهو يرغب في الانطلاق والصرمحة. بعد أن تستقر ابنته.. وترتبط بابن الحلال.. «البوى فريند».. مثل صديقاتها..

ومن الواضح.. أن «كارلا» موضوعة قديمة.. مع أن المسائل نسبية.. ويشكل عام.. فإن البنت الأسبانية.. مثل الأوروبية.. محافظة جدا.. من البيت «البوى فريند» ومن «البوى فريند» للبيت.. تسهر البنت الأسبانية.. ترقص.. تشرب.. تسافر.. تمشي في الطريق عريانة.. ولكني أراهن أنها ستضع أصبعها في عين سيادتك.. لو أطلت النظر إليها.. وتصورت أنها لا مؤاخذه.. فالعري عندهم بسبب الحرارة.. والموضة والانطلاق والعادات.. والعري شيء.. والانحلال شيء آخر.. ولا تسلم البنت نفسها سوى لحبيب القلب «البوى فريند».. وهي تسهر وتمشي على حل شعرها.. بصحبة «البوى فريند».. إلا أنها تنام في البيت في آخر الليل.. وتقول لأبوها: صباح الخير يا بابا.. وهو يشرب قهوة الصباح..

لا يهم ما الذي تفعله ليلا.. والمهم أنها تنام في البيت بعد ذلك.. وحكاية أن لها «بوى فريند» فهذا شيء طبيعي.. ومن حقها.. وهو ما يعادل.. ومع الفارق - الخطيب عندنا.. وكما تتعدد الخطبة أحيانا.. قد يتعدد «البوى فريند» لكن من المؤكد أن البنت لا تجمع بين اثنين في وقت واحد.. ولا تسلم نفسها لأي عابر سبيل.. وغالبا ما تتزوج البنت من أول أو من ثاني «بوى فريند» تعرفه في حياتها.. القضية أن مفهوم الشرف والعفة عندهم يختلف.. وشرف البنت

ليس مثل عود الكبريت.. لكنه مثل الولاة «الكارتييه».. بشرط أن يمسكها شخص واحد.. والبنت لا تنام مع حبيب القلب.. بدافع الإباحة.. ولكنه الحب.. الذى يشجعه الوالدان.. ويحرضان عليه.. والبنت التى ليس لها «بوى فريند» مشكلة معقدة.. وعلى الوالدين حلها.. بالاشتراك فى النوادى.. والذهاب لحفلات الرقص.. والتعرف على الأصدقاء.. عسى أن يرزقها الله «ببوى فريند» طيب وابن حلال.. ولعل هذا هو السبب.. الذى يدفع المصريين والشرقيين بشكل عام.. لمغادرة أوروبا.. فور وصول البنت لسن الفهم والبلوغ.. خوفاً من حكاية «البوى فريند».. وشرف البنت الذى هو مثل الولاة.. بصرف النظر عن نوع الولاة.

وأقر واعترف.. اننى فرحت جداً.. بالشابة «كارلا» التى تستلقى أمامى على حمام السباحة.. وتتمسك بمبادئ الأدب والخلق الحميدة.. رغم المايوه الساخن.. فى ظل عادات وتقاليد تختلف عن عاداتنا وتقاليدنا.. فقلت أقنع صديقنا الخواجة «البرتو».. وعلى طريقة الأقلام العربى.. بأن ابنته على صواب.. وأنه لا يجب أن يدفعها لطريق ترفضه.. وأنه من الأفضل له ولها.. أن تتربى فى عزه.. حتى يأتى عدلها.. ويرزقها الله بجدة طيب وابن حلال.. وحتى يرى «البرتو» أولادها وأولاد أولادها.. وأن أعز الولد.. هو ولد الولد..

فغطس الخواجة «البرتو» فى الماء.. ثم خرج ليقول لى إن ما أقوله هو موضة قديمة.. أكل الدهر عليها وشرب ونام.. وأن البنت فى إسبانيا تختلف.. فهى مسئولة عن نفسها.. وحضرة الوالد مسئول فقط عن تعليمها.. وليس مسئولا أبداً عن اختيار العريس.. ومسائل الشبكة والمهر والجهاز.. ولا يوجد عندهم رجل محترم ومهموم جداً.. بمسألة جهاز البنت.. لأن الأوروبى وقد علم ابنته وريها حتى سن العشرين.. من حقها أن يستمتع بحياته.. التى ليست وقفاً على

الأولاد.. ومن حقه أن يلعب جولف.. وأن يسافر حول العالم.. وأن يتفصح.. وأن يفرش.. وأن ينبسط.. ولا يوجد عندهم الأب المشغول بجهاز البنت وشراء شقة للولد.. والذي هو مهموم بطريقة العرض المستمر.. لأن العين بصيرة.. واليد ليست كذلك.. ولهذا يمد يده ليسرق.. أو يختلس.. أو يعمل «أوفر تايم».. أو يموت بالسكتة القلبية.

انسحب الخواجة «البرتو» إلى غرفة معالجة المياه.. ليشرف بنفسه على مسألة التعقيم والتطهير.. وقد تركنى مع البنت وصيقاتها.. لأحاول اقناعها بمسألة «البوى فريند».

لكنى اعترف اننى كرهت الحدوتة.. ولم أحب الرجل.. ولم أحترم المنطق الذى يفكر به.. ولم أفهم غرضه بالضبط.. وإذا كان حضرته يعمل بالبيزنس ويتاجر فى كل شىء.. فمن يعلم.. فريما كانت حكاية البنت.. نوعا من أنواع البيزنس.. والاستثمار.. وتجارة الألف صنف..

ولم أكرر زيارتى أبدا.. لبیت البرتو.. الذى يتكلم عربى.. رغم إلحاحه بضرورة تكرار الزيارة.. ورغم أن البنت تشبه كارولين.. فانا لم أحب الرجل.. ولا أفضل السباحة فى مياه المجارى.. ثم اننى لا أحب كارولين.. وأفضل عليها بروك المظلومة.

وقررت العودة إلى الجماهير.. التى أحبها وتحببني.. والتى أفكر فى ترشيح نفسى عنها فى أول انتخابات قادمة.. وخصوصا أنهم معجبون جدا بكونى عربيا.. فالأصل واحد.. والتاريخ مشترك.. ومن الواضح أنه احساس بفين بالحنين إلى حضارة استمرت ثمانية قرون.. أو ربما كان نوعا من الإعجاب والحسد.. على اعتبار اننى أحد الأحفاد الذى نجوا بجلدهم من مذابح الأوروبيين.. عقب سقوط الأنلس..

ومن حكمة الله.. أن الأندلس.. التي شهدت حضارة عظيمة.. والتي دخل فيها الإسلام بالراحة.. وعلى مهل.. فشهدت تعايشا حقيقيا.. بين جميع الأديان.. استمر ثمانية قرون كاملة.. قد صارت اليوم كاثوليكية تماما.. ولا يكاد يوجد بها مسلم واحد.. بعد أن خرج منها الإسلام بسرعة.. وبقوة السيف.

وعقب سقوط غرناطة.. آخر معاقل الأندلس.. في أواخر القرن الخامس عشر.. هرب يهودها - كما هي العادة - بفلوسهم وأرواحهم إلى طليطلة.. بالقرب من مدريد.. حتى يتسنى لهم منافقة الحكم الجديد.. في حين ظل المسلم والمسيحي جنباً إلى جنب.. يدافعان عن المدينة.. وعن حرية العقيدة.. وهذا درس آخر من دروس التاريخ وكان من الممكن للمسيحي أن يرحب بنظام الحكم الجديد على اعتبار أنه نظام مسيحي.. إلا أن المسيحي أدرك بالفطرة.. أن النظام الجديد هو نظام بربري.. بدليل محاكم التفتيش التي لعبت دورها.. فمارست العنف ضد الجميع.. إلى الحد الذي جعل أحد الفلاسفة المسيحيين يصرخ بالقول.. إنه من المستحيل أن يكون الشخص مسيحياً حقيقياً ويموت في فراشه.

وخلال عشر سنوات من سقوط غرناطة.. حكمت محاكم التفتيش على عشرة آلاف شخص بالحرق.. وعلى سبعة آلاف بالشنق مع التجريس والبهدلة.. وعلى مائة ألف بعقوبات السجن والجلد.. ووقعت مأس كثيرة.. تحتاج إلى كتيبة من كتاب الدراما.. ومؤلفي المسلسلات.. بدلا من التمثيليات السخيفة عن «الجرى والجماليات».. وعن حمائم السباحة.. تظهر فيها كارولين عريانة بلبوسة.. مع ريدج الوسيم.. الذي يحب بروك ولا يفضل السباحة.. في حمائم المجارى.



ولأننى «زوج» طيب وابن حلال.. أقدم الحياة الزوجية.. وأسمع كلام المدام.. فقد قررت الابتعاد عن اللبث.. وعن شغل السياسة والاقتصاد.. والتفرغ تماما للسياحة والسفر.. كما تفعل الست المنيعية التخيئة فى التلفزيون.. التى تعسكر ما بين الغريفة وشرم الشيخ صيفا، والأقصر وأسوان شتاء.. لتقيم برامج سياحية مخصصة.. وبالمرة وفوق البينة.. تتفصح مع حضرة الزوج والأولاد والخدمة!!

السيدة حرمتنا.. تتمنى السياحة والسفر والفسحة الشرعى.. على حساب صاحب المحل.. وقد بهرتها الحكايات عن رخص الأسعار فى الأندلس.. والتى هى الأرخص.. فى اللحم والخضار والهدوم والسجائر.. من أسعار سوق الموسيقى فى مصر.. ذلك لأن المنافسة الشريفة بين الشركات.. فى ظل الحزم الحكومى.. والعين الحمراء.. تؤدى تلقائيا لهبوط الأسعار.. عكس الحال فى المجتمعات أياها.. حيث تطفش الحكومة.. عن تكتل التجار والمستوردين.. من أجل ذبح المستهلك محدود الدخل والغلبان..

ولأن إسبانيا تحطم الأسعار تحطما.. فقد صارت هى القبلة والمرفا.. وميرط الفرس ومحطة الانطلاق.. للاخوة من أصحاب المعاشات فى أوروبا.. والذين انخفضت دخولهم.. بفعل المعاش والتقاعد.. فهجروا بلادهم «الغالية» واستفادوا من مكافأة نهاية الخدمة.. بشراء فيلا فى

غرناطة بالذات.. خصوصا أن أسبانيا تقع على بعد فرقة كعب من بلادهم.. ولا تستغرق الرحلة بالطائرة.. إلى لندن أو ميونخ.. سوى ساعة ونصف ساعة.. أو عشر ساعات بالسيارة.. أو خمسين يوما بالقطار.. لأن القطار الأسباني مشهور جدا.. بسرعته الفائقة.. التي تنافس سرعة قطار المناشى عندنا..

والأرقام تؤكد.. أن ما يقرب من نصف مليون شخص أوروبي.. يقيم ويستقر في أسبانيا نهائيا.. بعد خروج حضرة الوالد أو الزوج إلى المعاش.. وأن الألمان والانجليز والسويسريين بالذات.. يشكلون نسبة محترمة من أصحاب المعاشات.. الذين تصرفوا بطريقة عملية.. فباعوا ما وراءهم وما أمامهم.. واصطحبوا العائلة والأولاد.. واختاروا أسبانيا وطننا ثانيا.. بعد ارتفاع أسعار السلع والمنتجات في بلادهم الأصلية.. ارتفاعا كبيرا.. يكاد يقترب من ارتفاع الأسعار في مصر.

والسويسري مثلا.. الذي يعيش في أغنى بلد في العالم.. لا يمانع أبدا.. في الانتقال والهجرة من مسقط رأسه.. إلى أسبانيا الرخيصة.. فيقوم بتحويل معاشه إلى البنك.. وبالجمع والقسمة والضرب والطرح.. يكشف أن معاشه المحدود في بلاده.. والذي يرشحه للانضمام لقبيلة عشانا عليك يارب.. يكفي ويزيد.. لكي يعيش في أسبانيا عيشة الملوك واللوردات.. مستفيدا من فروق الأسعار.

من جانبها.. لم تقصر الحكومة الأسبانية.. وبفضل القوانين الأوروبية الموحدة.. وبفضل الامتيازات الإضافية.. تعطي الحكومة لأصحاب المعاشات الأوروبيين.. حق الإقامة والاستقرار.. وإلحاق الأولاد بالمدارس والجامعات.. بشرط ألا يسكن الأجنبي في وسط المدينة.. ولكي يستفيد من الامتيازات المتاحة.. عليه بالسكن في الضواحي

البعيدة.. التى تقوم الحكومة بمد جميع الخدمات إليها.. وبهذا تضرب عصفورين بحجر واحد.. فلا يزاحم الضيف الأوروبى أهل البيت فى السكن.. ثم إنه يعمر أطراف المدينة.. والحكومة هناك لا تعاني من عقدة الحاجة.. وهى ليست مسئولة عن توفير المواصلات العامة.. إلى مناطق سكن الضيوف.. لأن الأوروبى مبسوط.. ويملك سيارة يستطيع التنقل بها.. وبعد فترة لا تزيد على أعوام قليلة.. تصبح المنطقة النائية.. منطقة معمورة ومأهولة بالسكان والمحال.. بعد أن جذبت الأسباني ابن البلد.. فتصدر الحكومة فرمانا جديدا.. بأن يبتعد الأجنبي الوافد بعد ذلك.. إلى مناطق أبعد.. يساهم فى تعميرها.. ولهذا تتوسع غرناطة.. وتمتد مساحتها سنة بعد أخرى.. تماما كما حدث فى القاهرة زمان.. فى منطقة المعادى.. وهى المنطقة التى لم تتكرر.. لغياب التخطيط الحكومى.

. ولو أننى مسئول عن التخطيط العمرانى بالقاهرة.. أو أشتغل مسئولا كبيرا فى السياحة.. لاستفدت من التجربة الأسبانية.. ونصحت الأجانب والأخوة العرب.. الراغبين فى شراء شقق للاستقرار والإقامة فى مصر.. بشرائها فى المدن الجديدة.. مثل مايو أو أكتوبر أو سبتمبر.. أو حتى نى القعدة.. وأراهن أن هذه المناطق بعد فترة.. سوف تنافس المعادى ومصر الجديدة.. وسوف تزدهم بالمحلات والسيور ماركت.. والسينمات والمسارح والملاهى.. وسوف تنخفض طبعا أسعار المساكن فى المهندسين والمعادى والدقى والعجوزة.. و.. لا شكر على واجب..

ولا تتحكم الحكومة هناك.. فتشترط على أرباب المعاشات الأوروبيين وحدهم.. السكن فى أطراف غرناطة.. لكن الأمر ينطبق أيضا على

المهاجرين الأسبان.. والعمالة الأسبانية فى الخارج .. التى تنتشر فى بلاد الله لخلق الله.. وكما يسافر المصرى للعمل بالسعودية والكويت وقطر.. يسافر الأسبانى للعمل فى أوروبا.. وأمريكا اللاتينية.. وهى رحلة سفر مؤقتة.. لأن الأسبانى كالمصرى.. لا بد له من العودة.. وإن طال السفر.. للاستقرار والاقامة فى الوطن ومسقط الرأس.. وبالمرة يستفيد من الاعفاءات الحكومية.. أسوة بأصحابنا من أرباب المعاشات الأوروبيين.

تشجع الحكومة أبناءها على السفر والهجرة للخارج.. على اعتبار أنهم مصدر محترم للعملة الصعبة.. وتعفيهم تماما.. من جميع أنواع الضرائب.. لسبب بسيط ومنطقي.. هو أنه يدفع الضرائب بالفعل.. فى بلاد المهجر.. ومن غير المعقول أن يدفع الضرائب مرتين.. كنوع من العقاب.. كما تفعل دول أخرى.. وعند عودة الابن المهاجر لتراب الوطن بتحويله العمر.. تستقبله الحكومة بالأحضان والسلامات.. وتشجعا على شراء مسكن خارج كردون المدينة.. فتقدم الأرض بأسعار رمزية.. مع الاعفاءات المحترمة.. والقروض البنكية المناسبة.. والنتيجة أن الأسبانى يكسح فى الخارج سنة واثنين وعشرا.. لكن حلم العودة والاستقرار فى بلاده لا يفارقه.. لأن العودة تعنى المنزل المستقل وبأسعار مناسبة..

ومن حسن الحظ.. أنهم لا يعرفون اختراعا.. اسمه الوزير الرزان. يتفنن فى نبح الفرخة التى تبيض ذهباً.. ولا يوجد عندهم مسئولا فلهوى.. يلتف حول القرارات والقوانين المستقرة.. من أجل تحصيلا الضرائب السيرية.. واحدة لتصريح العمل.. والثانية لتسهيل العمل.. والثالثة لاستمرار العمل.. والرابعة لانتهاء العمل.. والمهم أن فوقه

ضريبة المبيعات!!

ولهذا لا يفكر الأسباني أبدا.. فى قطع تذكرة سفر بدون عودة.. أو أن يطفش خارج البلاد.. أو يؤجل أجازته.. حتى لا يتعرض للمشاكل والبهدلة.. لا لشيء.. إلا لأنه يقبض بالدينار والريال.. أبو تسعين قرشا..

المثير فى الأمر.. أن أسعار المساكن فى غرناطة مستقرة تماما.. لأن هناك توسعا عمرانيا.. وبالتالي لا يعرفون المضاربة على الأراضى والشقق.. وعندهم يافطة شقة للايجار.. لأن المهاجر الأسباني.. وقد عاد ليستقر فى أرض الوطن.. يحتاج للسوبر ماركت والبقال والسينما والمستشفى والحدائق العامة.. وهذه مهمة الحكومة ووظيفتها.. تقوم بها من أجل خاطر المواطن.. الذى حضر لبلاده بتحويشة العمر.. فساهم بفلوسه.. فى التخفيف من أزمة المساكن..

ولهذا فإن سمعة الأسباني فى أوروبا.. أنه حمار شغل.. ولا مؤاخذه.. يشغل صباحا وظهرا وفى المساء والسهرة.. يكبح أكثر.. ويتعب بالزيادة.. ويحوش فلوسه.. وإذا كانت أوروبا تشده بالفلوس والثروة.. فإن أسبانيا الأم تنأيه.. وهناك حلم جميل ينتظره.. بالاستقرار والراحة.. بعد العناء والتعب.. من أجل تكوين أسرة المستقبل.. والملاحظة العامة.. أن الأسباني لا يتزوج أبدا من خارج بلاده.. عكس الأسبانية.. التى تتزوج من ابن الحلال المناسب.. بصرف النظر عن الجنس أو اللون..

وتشير الاحصائيات.. إلى أن هناك ٣ ملايين أسباني.. يعملون فى أوروبا وأمريكا اللاتينية.. وحوالى نصف مليون يعملون فى الولايات المتحدة.. ودول شرق آسيا.. وأنهم يحولون إلى بلادهم سنويا.. ما يزيد

على عشرة مليارات دولار.. وتؤكد الاحصائيات.. أن عدد المهاجرين الأسبان.. الذين يعملون في أوروبا بالذات.. سوف يتضاعف حتما.. مع استقرار القوانين الأوروبية الموحدة.. التي تسمح للأوروبي.. بالعمل والاقامة والاستقرار.. في أية دولة أوروبية أخرى.. بصرف النظر عن جنسيته الأصلية.. وأسبانيا طبعاً.. بالاشتراك مع البرتغال واليونان.. سوف تكون من الدول المصدرة للعمالة.. نظراً لانخفاض مستوى الأجور بها.. عكس دول أوروبا الغنية.. مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا.. التي تدفع لعمالها أعلى أجور في العالم.. وبالعملة الصعبة أيضاً!!

أجمل ما في الحدودية.. أن المسائل محكومة وتحت السيطرة.. ومع أن أسبانيا بلاد تعشق الحرية.. وتتشوق بالديمقراطية.. إلا أن الحرية مشروطة بالأ تعتدي على حرية غيرك.. وهناك لا يعرفون المساكن نظام سمك لبن تمر هندي.. ومع أن المناطق الجديدة.. مخصصة للأغنياء.. سواء أغنياء أوروبا.. أو أغنياء أسبانيا من المهاجرين.. إلا أنها ليست مناطق عشوائية.. والقانون هناك لا يعرف زينب.. ولا يستطيع الواحد منهم أن يبني على كيفه.. والبناء طبقاً لنظام معماري صارم.. والبيت لا يزيد ارتفاعه على دورين.. ومدهون من الخارج باللون الأبيض الجميل.. والشبابيك لونها بني داكن..

ولا يوجد قريب للمحافظ.. يبني ناطحات سحاب وسط البيوت.. لأنهم لا يعرفون ناطحات السحاب أصلاً.. ثم إن المحافظ عندهم بالانتخاب.. لا يملك أن يرتكب مخالفة واحدة.. ولا يعرفون هناك الحاجة كاملة.. ولا يوجد واحد مسنود.. يدهن بيته بالأحمر أو الأخضر.. لأن الحكومة سوف تقوم فوراً بإعادة دهن البيت باللون الأبيض.. على حساب صاحبنا.. الذي سيقضى إجازة ظريفة.. في تخشيبية السجن.. وبدون

عيش وحلاوة.. لأنهم لا يعرفون الحلاوة الطحينية هناك..
ومن غرائب الأمور.. أن غرناطة الحمراء.. التي تحيط بها الخضرة
من كل جانب.. بفضل جبال «سييرا نيفادا».. والتي يضم كل بيت فيها
حديقة صغيرة.. لا تمانع في مد الحدائق الإضافية حول المربعات
السكنية.. وهي حدائق جميلة فعلا.. أجمل ما فيها ساعة المغربية..
حيث تخرج العائلة بكامل هيئتها.. الأب والأم والأبناء.. يتمشون في
الحدائق.. ويتكلمون ويتناقشون ويضحكون.. أو يقفون طواير أمام
السينما الصيفي.. في منظر يفكرنا بأيام زمان.. وسينما الروضة
وجرين والجزيرة في المنزل.. وسينما الهلال في السيدة زينب.. وهي
السينمات الصيفي التي كان سعر التذكرة فيها ثلاثة صاغ.. والتي
تحول معظمها إلى جراجات ومخازن خردة.. بفضل سياسة الانفتاح..
والتي باغلاقها.. انغلقتا على أنفسنا.. رغم الانفتاح الاقتصادي..
فعرفنا الكبت والاكنتاب والحدة والتعصب والتطرف..
ولأنها بلاد حارة.. فمن الطبيعي أن يكون الشورت هو شعار
المرحلة.. وهو الزى الرسمي.. الأب بالشورت الكلاسيكي.. والولد
بالشورت الموضوعة.. والبنت بالشورت الساخن.. وحتى الست الوالدة..
بشورت تفصيل من قماش العرض عرضين.
وما أحوجنا في ظل طقسنا الحار.. للخروج والذهاب للمشغل
بالشورت.. حيث المناخ المصري.. الحار خالص صيفا.. ولا أدري من
الذي روج للشائعة التي تقول إن مناخنا حار جاف صيفا.. مع أنه رطب
جدا.. والحقيقة أنه حار «سونا» صيفا.. نسبة إلى جمامات السونا..
التي أراهن أن السادة في أوروبا الغربية قد اخترعوها.. لتذكركم بجو
القاهرة الحار الرطب..

ومن غير المعقول.. والشمس تجلد رؤوسنا.. والرطوبة تسلخنا ظهرا وعصرا.. أن نذهب للشغل.. ونحن نرتدى القميص والبنطلون والجزمة والشراب.. وأحيانا البيلة.. لزوم العياقة والبروتوكول.. أنا شخصا.. ومن باب كسر القواعد.. ومحاربة الجمود.. وإثباتنا لحق من حقوق الانسان.. ارتديت ذات يوم الشورت الشرعى.. وخرجت من بيتى فى حوارى المنيرة.. قاصدا «روز اليوسف» على بعد شارعين.. وقلت فى نفسى إن المسألة فى حاجة إلى ثورة.. وإلى ثوار يقومون بصدمة الجماهير.. من أجل تكوين «لوى» ورأى عام ضاغط ومؤيد للشورت.. وقلت إننى سأبدأ بنفسى.. ومن المؤكد أن هناك آخرين يمكن أن يكملوا المشوار بعد ذلك..

وبالفعل.. نجحت مهمتى التنويرية.. وقد فوجئت الجماهير العريضة.. من الأهل والجيران.. برويتى للوهلة الأولى بالشورت.. ورأيت الدهشة والاستغراب فى عيونهم.. وقد رت اننى نجحت فى الخطوة الأولى بالشورت.. كما نجحت فى الخطوة الثانية.. لتكوين رأى العام القوى والمؤثر.. وقد التف حولى شباب المنيرة وعيالها.. لمشاهدة التجربة عن قرب.. ومن الواضح اننى نجحت بامتياز.. لأنهم اقتربوا منى أكثر.. فى مظاهرة حاشدة.. ورفعونى فوق الأعناق.. فى حب وتقدير.. وهم يهتفون من أعماق أعماق قلوبهم: «العبيط أه.. أه14».



وانفض المولد.. وتبخرت الجنيهاات والدولارات والاسترلينى.. ابتلعتها «البيريتا» الإسبانى الضعيفة.. وكانك يا أبو زيد ما غزيت.. ولم نتمكن بعد من رؤية كل الأماكن.. وقد وقعنا فى عشق الأتلس.. وتمنيت لو قضيت هناك عامين اضافيين.. للسياحة والفرجة على راحتنا.. وفكرت جديا فى احترام التسول.. لاستكمال المشوار والمسيرة.. عسى أن يفتح الله علينا.. بلقمة نظيفة وفسحة حلوة.. ومن يدرى.. ربما لعبت البلية.. وانفجرت الأحوال.. فنذعو الأهل والأصحاب للانضمام للمشروع الاستثمارى الناجح.. وبالمرة نؤسس شركة عائلية فى أسبانيا.. نسميها «شحاتكو» للخدمات المناولة.. على أساس أننا نناول الشحات الحسنة.. والقسمة والنصيب.

لكن المشكلة أن التسول فى أوروبا كلها وظيفة.. لها قواعد وقوانين.. وهو ما أفسد الصورة الرومانتيكية عن التسول والمتسولين. والمتسول يؤجر المكان من الحكومة.. بعد كشف الهيئة.. والإطلاع على المؤهلات.. ولكل متسول منطقة نفوذ.. يمارس فيها المهنة.. ولكل واحد فرع محدد من فروع التسول.. فهذا يشحت بزهرة صغيرة.. والثانى يشحت بالموسيقى.. والثالث يسرح بالكليتكس.. والرابع يشحت بالرسم على الرصيف.. والخامس يشحت كحيتى.. يعنى يمد يده بوضوح.. ويون خجل أو كسوف..

وكنت اتصور فى الماضى.. أن التسول هو سلاح العاجز والضعيف.. فإذا به وظيفة حقيقية.. يدفع عنها ضرائب وتأمينات ويدفع إيجار الشارع لحضرة ضابط البوليس.. الذى ينظم المسالة تنظيما دقيقا.. ويأويله

وياسود ليله.. من خرج من منطقته ليعتدى على منطقة نفوذ زميله.. او
احترف فرعا آخر للتسول غير فرعه الاصلى..
وتختلف الأماكن طبعا.. فشحات الميايين.. يدفع للحكومة أكثر من
شحات الحواري.. وشحات المناطق الراقية والسياحية.. يدفع ربما
بالدولار أو الاسترليني.. وحلم شحات الحواري.. أن يفتح الله عليه
بناصية مهمة.. يمارس فيها نشاطه وأكل عيشه..
ومن المؤكد.. أنه مادام هناك بوليس وتنظيم دقيق.. أن هناك نقابات عامة
وفرعية.. ومراقبي ضرائب وحسابات ومسك دفاتر.. حتى لا يتهرب
متسول واحد.. من دفع الضريبة المقررة.. وهو اقتراح نهية للزلات.. فربما
استطاع تحصيل كام مليون إضافية.. وخصوصا أن المهنة مزدهرة فى
مصر.. وتشهد الآن انتعاشا حقيقيا..
الحل إذن.. وما دمنا لا نملك المؤهلات المطلوبة للتسول.. أن اعلق شتطة
هدومى على كتفى.. والسياحة والتجول برخص التراب.. مع مجموعات
السائحين الأخرى.. وليس هناك أفضل من السائح.. ليشرح لك البلد
الغريب.. وخصوصا أننا لا نعرف لغة البلد.. فالسائح بعينه المتطلعة..
التي تلنقط للثير وغير المألوف والمدهش.. هو الأقدر على توصيل المعلومة
إليك.. وبرخص التراب.. وخصوصا أن سلطات السياحة هناك قد قامت
بواجبها.. فطبعت خرائط كثيرة بالمجان.. وبالتفصيل الممل لكل الأماكن
المهمة وغير المهمة.. وبجميع اللغات الحية والميتة والمغمى عليها..
وخرائط أخرى لجميع خطوط الاتوبيس.. وخرائط ثالثة للفنادق
والبنسيونات.. ابتداء من فنادق الخمس نجوم.. وانتهاء بفندق الكوكب
الزئبى.. وأوضحت عليها الأسعار بالتفصيل.. حتى لا تخضع المسألة
لشطارة أو فهلوة.. ولم تنس سلطات السياحة.. أن تقدم كشفا بأسعار
التاكسى بالضبط.. وتبعا لعدد الكيلومترات التي يقطعها التاكسى..
وأرقام تليفونات كثيرة.. لتشكو إليها.. لو حاول سائق تاكسى فهلوى.. أن
يستغل جهل السائح بالتعريفة والأسعار..
وبالفعل.. وفى ميدان القيصرية.. وبالقرب من المدرسة العربية القديمة..

التي تحولت إلى جامعة دراسية فى القرن الماضى.. تعرفت على مجموعة من السائحين والسائحات الدانمركيين والسويديين.. وعرفت أن أهم ما يمكن زيارته فيما تبقى لى من أيام معدودة.. هو مرتفعات «ريال حبان» والاسم عربى كما هو ظاهر.. ويطلق على أعلى نقطة سلسلة جبال «سييرا نيفادا» ومنها تطل على أسبانيا كلها.. والمنطقة على ارتفاع ٣ آلاف و٤٠٠ متر.. والصعود إليها بالأتوبيس يستغرق خمس ساعات.. ثم تكمل الرحلة على الأقدام لساعتين بعد ذلك.. وطبعاً لا وجه للمقارنة بين جبال سييرا نيفادا وبين قمة «مونت بلانك».. فى جبال الألب.. حيث يصل ارتفاع الأخيرة إلى ٤ آلاف و٥٠٠ متر، أو قمة ليفرست الشهيرة.. فى جبال الهمالايا.. حيث يقفز الارتفاع إلى ٩ آلاف متر.. ولا وجه للمقارنة أيضاً.. بين سلسلة جبال «سييرا نيفادا» التى يبلغ طولها ٧٠ كيلومتراً بمحاذاة الشاطئ.. وبين سلسلة جبال الألب.. التى تمتد طولاً لحوالى ألف كيلو متر.. وتخترق فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا والنمسا..

وأهمية «سييرا نيفادا» الحقيقية.. هى أنها قريبة جداً من البحر.. عكس جبال الألب الأوروبية.. والبعيدة نسبياً عن البحر.. ومع أن «سييرا نيفادا» يصل ارتفاعها إلى ٤ آلاف متر.. وطولها ٧٠ كيلو متراً.. فقد كانت تتعرض للزلازل منذ حوالى ألف و٤٠٠ سنة.. والحكاية أن حاكم الأندلس.. ومؤسس الخلافة الأموية هناك عبدالرحمن الناصر.. الشهير بصقر قریش.. كان قد أهدى لأحدى جواريه قصراً جميلاً عند سفح الجبال.. وبالقرب من مدينة قرطبة.. لكن الجارية رفضت هدية الأمير.. والسبب أن جبال «سييرا نيفادا» تحد من امتداد بصر للجارية الجميلة.. وتقطع عليها الأنسجام والتأمل.. فأمر عبدالرحمن الناصر رجاله.. بإزالة الجبال فوراً.. من أجل خاطر عيون الجارية.. ومن حسن الحظ أن صقر قریش قد قضى نحبه.. قبل أن يتمكن من استكمال المشروع الغريب.. وبقيت جبال «سييرا نيفادا» تخرج لسانها لأتغرب حكم عليها بالاعدام..

ولعل أجمل ما فى «سييرا نيفادا» أنك تشاهد بنفسك.. وبالصوت والصورة.. كيفية ولادة النهر.. الذى يتخلق من الندى المتجمع على

الأشجار الكثيفة.. ومن نوبان الجليد بفعل الشمس في قمة الجبل..
 فيتكسر في جداول صغيرة وكثيرة.. تتجمع معا في جدول أكبر.. تخترق
 الجبل مع آلاف الجداول الأخرى.. تنضم سويا في نهر صغير.. يواصل
 مسيرة الاختراق.. يمتد ليلتقى مع عشرات الأنهار الصغيرة.. لتصبح في
 النهاية نهرا كبيرا.. هو نهر «الدارو» الذي ينقسم في منتصفه بالضبط
 إلى فرعين.. أحدهما يذهب مباشرة إلى المحيط الأطلنطي أو بحر
 الظلمات.. بعد أن يخترق شمال أسبانيا.. والفرع الآخر يصب في البحر
 المتوسط.. مخترقا جنوب أسبانيا..

ومن نقطة متوسطة من الجبال.. تقع ما بين غرناطة وقرطبة.. تقف
 مدينة «العين» شامخة.. وهي إحدى المدن العربية القديمة.. التي اشتهرت
 بقلاعها.. التي ترأب البحر المتوسط.. وتفتش عن أساطيل الغزاة.. من
 بلاد المغرب الفاطمية.. أشهر هذه القلاع هي قلعة «سانتا كاتالينا»
 الضخمة.. وقد تحولت إلى فندق جميل من فنانق الدرجة الأولى.. اشتهر
 بأنه الفندق الذي تقصده العرائس والعرسان.. لقضاء شهر العسل.. وقد
 احتفظ الفندق بطابعه التاريخي.. وجوائحه القديمة.. وملابس وبروع
 وسيوف فرسان العصور الوسطى معلقة على الجدران.. لتشكل متحفا
 مفتوحا..

والفندق يكاد يشبه قصر محمد على في المنيل.. والذي تحول إلى فندق
 أيضا.. ولكن الفارق أنهم هناك مهتمون جدا بالقلعة وطابعها المميز..
 وبالنظافة أمامها.. عكس الحال في منيل بالاس.. حيث تتكوم الزبالا أمام
 الفندق الجميل.. والمهم أن شرطة السياحة.. تحتل نصف واجهة الفندق..
 وتوافق مشكورة على الزبالة.. ولعلها تساهم فيها.. وتستولى بوضع اليد
 على أماكن انتظار السيارات.. لتحجزها للسادة البهوات والباشوات
 ضباط السياحة.. في حين يصعب على السائح أو عابر السبيل أو نزيل
 الفندق.. أن يركن سيارته..

والظاهرة العامة في أسبانيا.. أن هناك موقف سيارات ضخما أمام
 جميع المناطق السياحية.. ومن الواضح أن سنة أولى سياحة تقول أنه من

الضرورى توفير جراجات لخدمة السياحة والسياح.. عكس الحال فى ميدان سيدنا الحسين.. حيث يتحكم ثلاثة منادين وصول متقاعد.. فى حركة السياحة ومرور السيارات.. وأراهن أنك تستطيع أن تركن سيارتك بدون المرور على حضرة الصول والأخوة المنادين..

أما فى أسبانيا.. فالمناهى ممنوع.. والأماكن متوافرة.. والدخول إليها بفلوس.. ولو تمكنت السياحة أو الثقافة أو الآثار.. أن تنظم الدخول وركن السيارات فى منطقة سيدنا الحسين وباقى الأماكن الأثرية.. فسوف تكسب نهباً من عيار ٢٤ قيراط.. يذهب بالفعل لحضرات البلطجية المنادين..

وأسبانيا التى تحتل المركز الأول وعن جدارة.. فى سوق السياحة العالمية.. تترك هذه الحقائق.. بديل الخرائط والنظافة والنظام.. وأماكن وقوف السيارات.. والخدمات الكثيرة من أجل خاطر عيون السائح.. وهى تدرك أن السياحة صناعة حقيقية.. تساهم بالفعل فى تحسين الدخول.. وإعلانات أسبانيا فى أوروبا.. تدعو السائح بوضوح لزيارة أسبانيا بلد الأمن والنظافة.. مع أن مسألة الأمن بالذات تحتاج لمناقشة.. خصوصاً مع ما يحدث فى إقليم الباسك الانفصالى.. وحوادث الإرهاب التى لا تقل بحال من الأحوال.. مع ما يحدث عندنا.. لكن أسبانيا الناصحة.. تتجاوز عن ذلك وتتركز على جوانبها الإيجابية.

وأسبانيا التى توجه الرسالة للسائح الأجنبى.. لا تنسى السائح المحلى ابن البلد.. وعشرات من سيارات السياحة الضخمة.. تقل أهالى أسبانيا فى رحلات منتظمة لرؤية الأماكن.. والتعريف على التاريخ.. ورحلات تلاميذ المدارس والجامعات.. تركز على زيارة الأماكن السياحية التاريخية.. نقصد أن أسبانيا تنظر للسياحة على أنها مورد حقيقى للدخل.. بديل أن غرناطة مثلاً.. أو قرطبة.. لا تملك سوى السياحة الداخلية أو الخارجية.. وعندما تهتم السلطات هناك.. بترميم المساجد.. وإحياء التراث العربى.. فهى لا تفعل ذلك من أجل خاطر عيون التراث.. وإنما هى تضرب خمسين عصفوراً بطوبة واحدة.. فهى تكسب عملاً صعباً.. وهى تكتسب سمعة طيبة فى مجال الثقافة بديل أن اليونسكو يساهم فى الترميم

والقجميل.. ثم ان الاهتمام بالتراث.. يعنى ان التلميذ الأسباني الذى يدرس تاريخ بلاده.. سوف يفهم الدرس بصورة افضل.. لأن التاريخ الأسباني وببساطة.. هو التاريخ المرتبط بالحضارة الأندلسية..

ووالله العظيم.. إننى مستعد لأن أعمل مرشدا سياحيا متطوعا.. للسادة مسئولى السياحة والآثار فى مصر.. فى زيارة لغرناطة أو قرطبة أو العين.. ليتعرفوا على الطبيعة.. كيف يهتم الآخرون بالتراث.. وكيف يمكن ان تتحول منطقة الأزهر والغورية وحوارى مصر الفاطمية.. إلى مصدر حقيقى من مصادر الدخل.. وحتى يمكن لنا أن ننافس اسبانيا.. التى تقوم الآن بتحويل غرناطة الأندلسية.. إلى مركز حقيقى من مراكز التراث الإسلامى..

واقر واعترف.. انه كما يقع الإنسان فى الحب من اول نظرة.. فقد وقعت أنا فى حب الأندلس.. ومن الزيارة الأولى.. التى جاءت بالصدفة التى هى خير من ألف ميعاد.. شىء واحد ينغص على زيارتى.. هو اننى لم اشاهد مصارعة الثيران.. لأن موسم المصارعة لم يبدأ بعد.. ومع اننى لست من هواة المصارعة على اختلاف أنواعها.. ولست من المهتمين بمصارعة الثيران بالذات.. لأنها ليست مصارعة مفتوحة.. يساق فيها الثور الغلبان.. إلى الساحة.. لتحاصره العشرات من المصارعين الكومبارس بحراهم وسيوفهم.. فينزلون فيه تقطيعا.. قبل ان يدخل المصارع الرئيسى «البريمابور» بملابسه المزركشة.. ليخلص على الثور المنهك.. فى ضربة واحدة.. ومع اننى لست من هواة مصارعة الثيران.. فقد سعت لمشاهدتها دون جدوى.. والحل الوحيد هو العودة من جديد لاسبانيا الجميلة.. لكى اشاهد مصارعة الثيران.. وبالمرة أزور الأهل والأصدقاء.. فى البايسين والحمراء والقيصرية والعين والحمام.. اجلس فى المقاهى اشرب شاي بالنعناع.. واتجول فى الحوارى.. واقع فى غرام بنت اسبانية جميلة.. من بنات العم أو الخال.. لنعيد وصل ما انقطع من حكايات التاريخ.. وغزوات الماضى البعيد.. وإن عضنا الجوع.. اطلب لها واحد فول بالزيت الحار.. و.. على حسابى..



العرب في أوروبا ومنوع الاقتراب والتحرير



قررت أن أخذ بنصيحة صديقي على سالم.. وأن أتزوج على سنة الله ورسوله من سنيورة سويسرية.. تفتح لي أبواب المجد والثراء.. وتتقلني بجرة قلم.. وتوقع ما أتون.. من مواطن غليان من مواطني العالم الثالث.. يحترف الوقوف في طوابير المنحة وسلف المدارس.. إلى بيه محترم من رعايا العالم الأول.. يركب التمساح والخنزيرة والشبح.. ويصرف بالاسترليني والدولار.. ويدخن السيجار والبايب.. بعد البلمونت والكلبياترا ..

ومن الواضح أن على سالم ليس موهوبا فقط في المسرح والدراما.. لكنه أيضا خبير في شنون الحريم وعلم الأجناس.. بليل أنه أكد أنني بالذات الشخص المناسب تماما للبلاد السويسرية..

فأنا أسمراني اللون.. أكرت الشعر.. مشلفط الملامح.. وهي مواصفات تغري نصف بنات سويسرا بالجرى ورائي.. وتغري نصفهن الآخر بالفرجة والتصفيق.. فالبنت هناك قد زمقن تماما من أصحاب الوجوه الوسيمة والشعر المسبب.. والموضة الآن هي التغيير والبروستروكا.. والاقترا أن بأسمر الملامح واللون الشيكولاته.. وهي مواهب أمتلك منها الكثير والحمد لله..

قبل أن أركب الطائرة.. همس لي على سالم: لا تنس أن ترفع رؤوسنا.. فأنبت مندوبنا السامي.. وممثلنا الشرعي والوحيد في بلاد الفرنجة..

فقررت ألا أخيب رجاءه.. فهو الأدرى.. وقديما قالوا أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة.. وعلى سالم يعرف أكثر مني بألفين سنة على الأقل.. ومادام يرى أنني أنفع فالنتينويون جوان.. فلا بد أن أكون كذلك.. وما بدت قد زرت بلاد الخواجات.. فلا بد أن أناسيهم.. وأن أغزو قلوب بناتهم.. وأشعرهن باللوعة والوجد.. وأن أعيد إليهن بالصوت والصورة.. قصص الغرام الشهوية.. وسحر ألف ليلة وليلة.

فتوكلت على الله.. وفور نزولي من باب الطائرة.. شمريت أكمام قميصي..

ولبست الجينز آخر موضة.. وفردت طولى.. وشفطت للداخل كرشى المتكور والمهتز طربا.. لبلا على سوء التغذية فى الصغر.. حين كنا ناكل أى شىء.. وكل شىء.. خوفا من الجوع.. بعد ذلك.. و.. مشيت اتهادى وأستعرض نفسى.. ويا شوارع سويسرا اتهدى.. ما عليك قدى..

وقد قررت ألا أتواضع.. فلا أكتفى بواحدة أو اثنتين.. كما تفعل الناس الغشيمة.. لكننى كفا للثنين ومحترم.. وضعت أمامى هدفا واضحا.. وخطة خمسية.. فى الخمسة أسابيع التى أقضيها فى سويسرا.. بالزواج من أربع بنات دفعة واحدة.. فالبنات على قفا من يشيل.. والصحة من حديد والحمد لله.. لكنها قلة الوقت.. والبخت والنصيب..

مر على يوم واثنان وعشرة.. وأنا لا أتقدم خطوة واحدة.. كل يوم أجوب الشوارع.. سواح وماشى فى البلاد سواح.. والبنات سبحان الله.. على كل لون ومن كل بستان.. شقراء وخمرية وسمراء.. طويلة ورقيلة وسمينة.. ولا واحدة تضع فى عينها حصوة ملح.. وتلتفت إلى كامل الأوصاف.. وفارس الأحلام.. الذى لم يأت على حصان أبيض عادى.. وإنما على بونينج إيرباص.. كلفتنى تذكرتها الشىء الفلانى..

بصراحة.. زهقت من مسلة ألف والدوران.. وكأنتى عسكرى دورية.. أو كأن على طابور نيب.. وأنا قارء طولى.. شافط كرشى.. حتى أدركنى اليأس.. ووجعنى العمود الفقرى.. ولى منى الحذاء.. وتدهورت أحوالى.. وبنات سويسرا ولا هن هنا.. مع أننى تنازلت عن شرط الزواج بأربع.. وقررت الاقتران ولو بواحدة.. بشرط أن تكون بيضا.. بيضا.. بيضا.. بغرض واحد وجيد.. هو تحسين النسل فى عائلتى الكريمة.. وإدخال الهجين الرومى.. وأنجاب بنات وبنين من صلبى.. يرطنون لغات أجنبية..

وسويسرا بالمناسبة.. تتكلم ٤ لغات..

أولها: الومانش، وهى لغة أهالى الجبال.. وهى لغة تقليدية قديمة ومنقرضة.. تتحدر من أصول لاتينية.. ويحاولون إعادة أحيائها هذه الأيام.. وبالإضافة إلى ذلك.. يتكلمون ثلاث لغات أخرى.. هى الفرنسية والألمانية والإيطالية.. لا يتحدث محسوبكم منها سوى اللغة العربية..

ومن الواضح أن اليأس والخيبة قد سيطرا على حالتى النفسية.. لأنه عندما هلت على الميدان الذى جلست فيه التقط أنفاسى من طابور الخدمة الإجبارى.. عندما

هلت حسناء جمالها كما فى الكتالوج.. وقد جلست على الأريكة فى الميدان بالقرب منى.. وراحت تنظر إلى نظرات الود والهيام.. لم يفتح الله على.. وأنا إتقدم نحوها.. أقدم رجلا.. وأؤخر الأخرى.. وأمد يدي فى رجاء.. وأنا أصرخ من أعماقى: مدموا زيل.. مدموا زيل..

ويبدو أن المدموا زيل قد أبركت أننى لم أكل منذ عشرة أيام.. لأنها سحبت يديها ووضعت فى كفى الممدودة خمسة قرنكات.. وهى تقول «يحن» بالفرنساوى.. ومضت وهى تلعن حظها النحس.. الذى أوقعها فى شحاذ أيكم.. وتركتنى وحيدا مكبوسا.. كالغراب النوحى.. يغنى ظلموه على الأطلال..

فى مكتبة بالأمم المتحدة.. ومن بين كومة الأوراق الهائلة أمامه.. رفع صديقنا الكبير.. الأديب والسياسى والمترجم محمد مستجير رأسه.. وقال لى بلهجة الخبير الواثق:

لقد جئت متأخرا عشرين سنة على الأقل.. ولهذا لا يمكن أن تتزوج السنيورة التى تفتش عنها..

- وهل كل سنيورات سويسرا قد تزوجن بالفعل من عشرين سنة!!
- أقصد أن الزواج الذى تسعى إليه.. الذى يبدأ بالاعجاب والصداقة والحب والمأثون والأولاد.. قد أنتهى أمره.. الزواج الآن بين السويسريات والأجانب من أجل هدف واحد هو «البيزنس» المشترك.. العريس يسعى للحصول على تصريح بالإقامة والعمل.. والعروس لا تمانع بشرط أن يدفع العريس..

وهناك الآن مكاتب سرية متخصصة.. تستطيع من خلالها الزواج بآلة واحدة والسلام.. وهوليس زواجا حقيقيا.. ولو كنت محظوظا.. لن ترى زوجتك سوى مرة واحدة.. عند توقيع عقد الزواج.. أما لو كنت كعبادتك منحوسا.. فسوف ترى الزوجة كل يوم.. ومعظم الزوجات عن طريق تلك المكاتب.. عجوزات شمطاءات.. أكل الزمان عليهن وشرب وأخذ تعسيلة ونام.. وهن لا يمانعن من الزواج من حضرتك.. بشرط أن تدفع نسبة محترمة من مرتبك الأسبوعى أو الشهرى.. لأنك بالزواج.. سوف تتمكن من العمل والإقامة..

وللاسف.. لا يتورط فى هذه الزيجات سوى أهل من العالم الثالث.. يسعى للركنة فى سويسرا.. أما رعايا العالم الأول.. من أوروبا وأمريكا.. فهم أبناء عمومة السويسريين.. والأقربون أولى بالرعاية والمعروف.. وهم يخطون الأراضي السويسرية بدون فيزا وبالبطاقة الشخصية، ومن حقهم طبعاً الإقامة والعمل.. أما

مواطنو العالم الثالث.. فخببتهم ثقيلة.. يحتاجون لأوراق وأختام وجوازات وضمائمات بنكية وشهادات بحسن السير والسلوك.. حتى يتمكنوا من دخول البلاد.. ولهذا يلجأون إلى الطويق السهل.. طريق المكاتب السرية.. للزواج من عواجيز انتهت مدة صلاحيتهن.. والمصيبة أن بعضهن يتمسك بالزواج بحق وحقيقى.. طمعا فى تجديد شبابهن الذى ولى منذ كام مليون سنة.. أما الزواج كباقى خلق الله.. من سننيرة حسناء.. فهو من رابع المستحيالات لسبب بيديهى.. هو أنك عربى بالياسبور والطابع والملاح.

-نعم.. والخيل والليل والبيداء تعرفنى..
..كان زمان وجبريا صديقى.. كلمة العربى الآن.. مرادفة للقسوة والخيانة.. والجليطة وقلة الضمير.. والذى صنع هذه السمعة.. ليس وسائل الاعلام.. واللوى الصهيونى.. كما اعتدنا أن نقول.. لكن الذى صنعها هم العرب أنفسهم.
زمان.. عرفت سويسرا زيجات كثيرة من مهاجرين ومواطنين عرب.. توانسة وجزائريين ومغاربة.. وأحيانا من مصر ولبنان.. وللأسف انتهت بعض هذه الزيجات نهايات تراجيدية.. تتأقلمها الصحف كالحوايت وقصص الفولكلور.. وهى حكايات تنتهى دائما بحكمة ونصيحة.. تنقلها الأم إلى ابنتها بطريق مباشر أو غير مباشر.. بأن العربى ليس هو فارس الأحلام المنتظر.. قبل الزواج.. يبدو المهاجر العربى رقيقا.. وبدوا.. عطفوا.. «جنتلمان» متحضرا.. وهى صفات تفسر قلب البنات هنا.. فى مجتمع المادة والمنطق والسرعة والكمبيوتر.. وحساب كل شىء..

بعد الزواج.. يتحول المتحضر العصرى.. إلى رجعى محافظ يخرج من جيبه بعد انتهاء شهر العسل قائمة طويلة بالمنوعات.. ممنوع الخروج.. ممنوع الفسح.. الكلام مع الآخرين ممنوع.. الضحك بدون سبب قلة أدب.. والداهية لو سافرت العروس إلى بلاده.. ساعتهما سوف يتحول إلى نسي السيد مضروب فى عشرة.. ويفرض عليها الحجاب أو النقاب.. ومصاحبة أمه وخالاته فى بيت العائلة الكبير.. فإن عصت أو اعترضت.. حبسها وضربها.. وتزوج عليها.. ولا تنس أن البشر عبيد له ذلك..

ولو كان أخونا العربى مجرد «واين ناس» سرحها بالمعروف.. واحتفظ طبعها بالأولاد.. لنعود إلى بلادها مكسورة الجناح.. لتبدأ مشوار المحاكم والقضايا.. من أجل حقها فى رؤية أولادها.. وحتى إذا حكمت لها المحكمة.. لا تستطيع تنفيذ

الحكم.. لأن الأولاد في بلد الزوج.. وهناك ألف وسيلة ووسيلة لتعطيل الحكم والتحايل عليه..

ومن المؤكد أن أخانا العربي.. ولا أقول كلهم.. يضع قناعا.. قشرة حضارية.. تخفي ملامحه الحقيقية قبل الزواج.. أو قل إنه يعاني من الشيزوفرينيا والزواج الشخصية.. فيتصرف قبل الزواج في بلاد الخواجات برفقة وشاعرية وعصرية.. أما في بلاده.. فتظهر شخصية أخرى الشرير المستبد.. المستوعب جيدا لقاموس الشتائم والنعوت التي تبدأ من الأم الأولى.. وتنتهي إلى الجد السابع.. ولهذا نقبل العديد من الزيجات.. وطبعاً تساعد الصحافة والأعلام في تضخيم الأمور.. وبالتالي أصبحت سمعة العربي في الزواج.. كالماركة المسجلة.. ممنوع الاقتراب والتصوير..

المصيبة إن أخواننا العرب.. يزجون بالشريعة الإسلامية.. في علاقاتهم بالمجتمع.. بمناسبات وبدون مناسبة.. يضرب الواحد منهم زوجته علاقة ساخنة.. فإذا شكت للبوايس قال: الدين يعطيني الحق في تأديتها..

إذا خطف أولاده وسافر.. ببرر المسألة.. بأن حضنة الأولاد من حقه هو.. لأنه لا يطمن عليهم معها.. لسبب بسيط أنها أجنبية لا تدين بالدين الإسلامي.. أولادها غير محتشمة.. وسمعتها ليست على مايرام..

وحتى عندما يتوكل العربي ويموت.. يستولى أهله على ركن من حديقة عامة تطل على بحيرة «الليمان» الشهيرة.. ويطالبون بتحويل الحديقة إلى مقبرة للمسلمين.. بحجة أن الدين الإسلامي يعطيهم الحق في الحصول على مقبرة خاصة بهم.. بعيداً عن مقابر المسيحيين..

باختصار.. صارت كلمة العربي.. مرادفة لكلمة المشاغب.. ولهذا اتبعه بنات سويسرا من الاقتران بالعربي.. وتفضل عليه أية جنسية أخرى لا تتنطق لغة الضاد..

ومشكلك يا صديقي.. أنك جئت في الوقت الضائع.. بعد أن انفض المولد.. ووزعت الغنائم..

ثم إن الزواج هناك هو نهاية المطاف.. يعني المفترض أن تتعرف أولاً على زوجة المستقبل في مناخ صحى.. في النادي.. أو المدرسة أو الجامعة.. أو في العمل.. أو حتى في القهوة.. وبينك يمكن أن تنشأ علاقة محترمة.. تستمر شهوراً وشهوراً.. حتى تنتهى وتتوج بالزواج، أما البحث عنها في الشوارع.. فاسمح لى..

وعلى أية حال.. لو أردت أن تجرب حظك.. أنصحك بالذهاب إلى قهوة «ستيلا»
في قلب جنيف المحطة.. يعني بجوار محطة القطار الرئيسية.. وهي قهوة أثرية
جميلة.. اشتهرت بلن كارل ماركس جلس فيها يوما ما.. وميزة هذه القهوة.. أن
معظم روادها يتحدثون الانجليزية.. التي تعرف عنها القليل.. وهناك جرب حظك..
ربما فزت بما تسعى إليه..

وقبل أن أقفز في أول أتوبيس إلى القهوة.. قال لي: لا تنس أن ترتب هندامك..
وإن تبدو محترما وقورا.. لأن اندفاعك للبحث عن عروسة.. قد يعرضك لمتابع
كثيرة..

وفي قهوة «ستيلا».. جلست وقورا.. وقد جاءت جلستي بجوار وقور مثلي..
تجاذبنا أطراف الحديث.. كما تفعل الناس الوقورة.. وقد قدرت أنه يسعى مثلي
للتعرف على بنت الحلال.. إلا أنه عندما سألني عن ذلك صراحة.. أنكرت بشدة..
واكدت له أنني أكره البنات.. وأكره سيرتهن..

فهم الرجل الموقف.. وتجنب سيرة البنات.. وراح يتحدث ويحكى في كل شيء:
الاقتصاد.. والسياحة.. البطالة.. والمواصلات.. والشذوذ الجنسي..
في هذا الموضوع الأخير.. تحدث الرجل فأنقاض.. فاستعرض أسماء المشاهير
في التاريخ القديم والمعاصر.. الذين مارسوا الشذوذ.. فتكلم عن نابليون وأوسكار
وايلد وغيرهما.. وتحدث أيضا عن كلينتون المرشح للرئاسة الأمريكية.. والذي
تبنى مشاكل الشواذ.. والذين قرروا إعطاء أصواتهم بالاجماع..
عند هذه النقطة.. توقف الرجل.. وسألني إذا كنت مشغولا الليلة.. لنواصل
الحديث على انفراد..

فأجابني: أنت تكره البنات.. وأنا أكرههن.. فلماذا لا نكون سويا..؟
سألته: وهل أفهم من ذلك أن حضرتك.. ولأمواخذة يعني.. حضرتك مثل أوسكار
وايلد ونابليون.. يعني حضرتك كذلك؟
- أنا «كذلك» فعلا.. ويدون مؤاخذه..

اندفعت أغامر القهوة.. وأنا العن في سرى.. سويسرا.. وبنات سويسرا..
وكلينتون ونابليون و.. على سالم!!



الريان والسعد على الطريقه السريه



لا يوجد فى سويسرا. بيه أو باشا.. مع أنهم مجتمع رأسمالى فيه الكبير وفيه الصغير.. وعندهم مليارديرات بحق وحقيقى.. واغنياء وأصحاب أرانب.. وفقراء نص نص.. وعندهم وزراء وصنایعية وباعة جائلون.. وأساتذة جامعات وعلماءون وطلاب وجنرالات وكمسارية.. إلا أن لقب كل منهم هو «مسيو» بلا زيادة أو نقصان..

و«مسيو» تعنى يا سيد أو يامحترم.. وهم هناك ورغم التباين الكبير فى الثروة والدخل.. إلا أن للمقام محفوظ.. والألقاب معنوعة.. لم تمنعها ثورة اجتماعية.. أو انتفاضة شعبية.. ولكنها معنوعة بحكم الأصول.. ويحكم أننا أولاد تسعة.. ويحكم أن الناس سواسية كسنان المشط..

فى الصباح يقابلک السويسرى أو السويسرية.. وعلى الوجه ابتسامة عريضة.. وعلى اللسان عبارة «بونجور مسيو» وكأنهم بلديات أو معارف.. أو كأن بيتنا «عشرة وعيش وملح»..

فى البداية.. تصورت أنهم يخصوننى بالتحية والسلام.. لأننى أجنبى وهم يكرمون الضيف.. لكنى اكتشفت أنهم هكذا على طبيعتهم.. وأن «بونجور» يعنى صباح الخير.. وأن كل فرد يبدأ اليوم الجديد بعبارة «بونجور مسيو».. «بونجور مدام».. الكل عندهم «مسيو» من أول الوزير وحتى الكناس.. من البية «المسيو» مأمور النقطة.. وانتهاء «المسيو» الخفير..

وفرحت بالمعاملة.. واندمجت جدا فى المجتمع والعادات السويسرية.. وفكرت أن أعانق كل من يقابلنى.. وأنا أريد بود حقيقى.. وقد اشتقت لحصر زمان.. ولأغاني الصباح المبكر فى صوت العرب.. «بونجور» عليكم ورحمة الله وبركاته..

ومصدر سعائتى بلقب «مسيو» الذى حصلت عليه فى سويسرا.. هو أنتنى لا أحمل ألقابا فى مصر.. فى ظل سيرك الألقاب الحالى.. فأننا مثلا لا أصلح باشا.. ولا أنفع بيه.. ولست أسطى.. أو معلما.. أو حاجا.. وملامحى ومظهري لا يعطيان

اطباعا بأننى أشتغل بالصحافة. ومرة وقفت أشتري خضارا من المحل أمام روز اليوسف فجاءت واحدة هانم نظرت إلى من طرف مقارها وقالت لى هات ٢ كيلو طماطم وحطهم فى العربية !!

أما فى سويسرا فانا «مسيو» محترم والكل هنا سواسية لا فضل «لمسيو» على «مسيو» إلا بالعمل والعطاء والانتاج فالذى يعمل يقبض ويوفر ويحوش ويشترى شاليها فى جبال الألب.. وشقة فى الريفيرا ويتفصح فى بلاد الله . وينام فى أحسن الفنادق.. أيا كان نوع العمل الذى يمارسه . أما المسيو الكسلان والعاطل عن العمل فهو يادوب ياكل لحما وخضارا وفاكهة ويسكن شقة بالايحار ويركب الاتوبيس. لكنه لا يزوع من الكمسارى لأن التزويغ من الكمسارى جريمة مخلة بالشرف والاعتبار يعاقب صاحبها بعرامة ضخمة وربما يجبسونه حتى لا يعاود عمله المهيبه..

لا يوجد فى سويسرا «مسيو» وظيفته الجلوس على باب الحمام موروق تواليت يعطيه لحصرتك وهو يقول شقيتم ويمد يده لكل خارج من بيت الراحة ولا يوجد «مسيو» صحم يحتل نصف الأسانسير وظيفته أن يرفع يده بالسلام للخارج والداخل نظير حسنة حسب التسعيرة الجبرية ربع جنيه من كل واحد المواطن فى سويسرا جدير بالاعتبار والاحترام إلى أن يثبت عكس ذلك فى مجتمع حقق الرفاهية لجميع أفرادها . الغنى والفقير الشعال والعاطل..

ورغم ذلك فالفساد موجود عندهم كما هو موجود فى جميع مجتمعات الدنيا لكنه ليس على وجه. الفساد أحيانا وليس طول الوقت والأوهر تايم أيضا الفساد هناك حالات فردية وليس سلوكا عاما والمسئول الذى يمارس الفساد يتحفى ويحفى عورته لا يحاهر بها ولا يجبر الآخرين على الفساد معه وإلا تعرضوا لبطشه وعقابه

ويا ويله ويا سواد ليله المسئول الفاسد الذى يطب ويقع . فصيحته ستكون بحلاجل وبالزفة السويسرى وهى غير الرقة الاسكندرانى.. ويعنى أن الصحافة والأذاعة والتليفزيون سوف تفتش وتتقب فى حياة المسئول حتى الجد السابع . وسوف تكتشف انك تهريت من أجرة الاتوبيس فى اليوم القلانى . وانك زوعت من الصرائب فى السنة القلانية وأن أموالك وعيشتك حرام.. وانك لا

تستحق العيش فى الجنة السويسرية

هناك لا يعرفون معلش والقانون لا يعرف زينب وعندما يقع للمسئول لا يقولون أصل سمعة الحكومة. وسمعة حزب الحكومة فسمعة الحكومة وحزبها ستكون باصعة البياض. لو تخلصت من المسئول الحرامى. وسمعتها لن تكون كذلك. إذا ما طلت وتمايعت وتهربت

وهكذا فعلوا فى سويسرا.. مع الوزيرة اليزابيث كوب وزيرة العدل والنوليس والتي كانت مرشحة لتولى منصب رئيس الجمهورية أو رئيس الاتحاد السويسرى

بالمناسبة رئيس الجمهورية هناك.. يختارونه من بين سبعة وزراء. يتم اختيارهم بالانتخاب الحر ويمكث الرئيس فى منصبه سنة واحدة فقط. بعدها يتولى زميله الرئاسة لمدة سنة أخرى. وهكذا يتولى الوزراء السبعة الرئاسة، كل منهم سنة واحدة وبعد السنوات السبع يتم انتخاب سبعة وزراء آخرين.. يتولى كل منهم الرئاسة لمدة سنة لا تقل أو تزيد.

كانت الوزيرة اليزابيث كوب. من الوزراء المشهود لهم بالحرز والجسم. سنت سمعتها ورصيدها السياسى.. عندما تبنت قضية تنقية المجتمع السويسرى من العملة الأجنبية. زمن فلوس الأجانب المشبوهة وهى الفلوس القائمة من تجارة المخدرات والتي تتفنن بعض البنوك السويسرية فى تنظيفها وهى العمليات المشهورة بعمليات غسل الأموال..

غسل الأموال ببساطة يعنى تحويل الأموال من المصادر المشبوهة. إلى الحسابات المحترمة. بمعنى أن مستر «اكس» مثلا التاجر المعروف فى عالم المخدرات قد أعطانى ١٠٠ مليون دولار. فساكون عشيما لو وضعتها فى حسابى مباشرة. لأن المستر «اكس» سبىء السمعة. وعلاقى به تضرر سمعتى تم إنهم قد يقبضون على المستر «اكس» سبىء السمعة.. فيحرجرنى معه والحكاية ببساطة أن الـ ١٠٠ مليون دولار يمكن وضعها فى حساب باسم شخص آخر.. يتولى تحويلها إلى الشركة الفلانية التى تودعها كأرباح باسم شخص ثالث يشتري سندات من شركة أجنبية تقوم بايداع الأموال باسم شخص خامس أو سادس.. يتولى ايداع الأموال باسمى فى النهاية. تحت حساب أرباح أو وديعة.. أو مشاركة. أو أية تسمية

ولو سقط مستر «اكس» غدا أو بعد غد.. يظل اسمى نظيفا.. ويعيدا عن القضية.. بفضل نظام الحسابات السرية.. وبفضل الأموال التي دارت دورة كاملة.. عبر أسماء سرية متعددة.. حتى تصب في النهاية في حسابى المحترم البعيد عن كل شبهة..

ومعظم أموال المخدرات في جميع بلدان العالم.. تنتهى فى البنوك السويسرية.. بعد إعادة غسلها.. و٩٠٪ من أرباح صفقات السلاح.. تصب فى بنوك سويسرا بعد تنقيتها وغسلها.. وكل الرشاوى والعملات وأموال السمسرة وتحويلات الحكام الفاسدين.. تذهب إلى بنوك سويسرا.. بعد غسلها وتنظيفها.. ليصعب بعد تلك معرفة المصدر الحقيقى لتلك الأموال.. وهى ليست ملايين بالنسبة.. ولكنها مليارات المليارات.

وفى واحدة من أكثر قضايا الرأى العام فى سويسرا.. برز اسم زوج الوزيرة اليزابيث كوب.. وهو محام شهير.. تخصص فى عمليات غسل أموال للمخدرات والسلاح.. وتورط فى علاقات مشبوهة مع تجار من أمريكا اللاتينية ودول الشرق الأوسط..

فضيحة اليزابيث كوب الحقيقية.. أنها ومن خلال الأوراق والملفات أمامها كوزيرة العدل والبوليس.. قد حذرت زوجها.. الذى تبه فى الوقت المناسب.. وتمكن من إخفاء أوراق ووثائق هامة.. وهى الأوراق التى تمكنت الصحافة من الكشف عنها.. ليقع زوج الوزيرة.. وتقع الوزيرة بتهمة تسريب المعلومات إلى زوجها المنحرف.

وتتسع القضية.. عندما تكشف الصحافة.. أن ما كانت تريد اليزابيث كوب حول الأموال النظيفة وغير النظيفة.. وتحويلات الأجانب المشبوهة.. كانت مجرد اقوال للاستهلاك المحلى.. وأنها مع زوجها متورطة تماما فى لعبة غسل الأموال..

ووقفت الوزيرة مع زوجها أمام القضاء.. الذى حكم بسجن الزوج.. وغرامة الوزيرة مع عزلها من وظيفتها..

ومع أن اليزابيث كوب.. تناقضى معاشا شهريا.. كوزيرة سابقة.. يبلغ ١٢ ألف فرنك.. يعنى ٢٠ ألف جنيه مصرى مع مطلع كل شهر.. إلا أن الصحافة طالبت

بحرمانها من المعاش فورا.. لسبب بسيط أنها لا تستحقه.. وأنها لا يجوز لها أن تتقاضى معاشا يقطع من أموال دافعى الضرائب.. الذين ضحكت عليهم.. و.. لاتزال القضية منظورة.. أمام محكمة الراى العام.

دلالة القصة.. أنه لا أحد هناك فوق القانون.. حتى وزيرة العدل والبوليس.. ولا يستطيع مسئول واحد.. أن يتهرب بفهلوة.. وهو يريد كلاما معلا ومكررا عن الاستقرار وسمعة الحكومة.. والقة الحاقدة والمؤامرات الأجنبية..

على العكس تماما.. فى مسائل الاتحراف والسرقه والتهلپ.. فإن الحكومة صاحبة وتملك اجراءات واجراءات لمحاسبة ومطاردة المتحرف والحرامى.. وهى حكومة تشجع الاستثمار وتحرض عليه.. وتعطى تسهيلات وتسهيلات للمستثمر الجاد.. أما غير الجاد والتصاب.. فمصيره هو مصير المحامى السويسرى الشهير تورنار..

وتورنار هذا محام شاطر.. اكتشف أن بنوك سويسرا هى القبله والهدف.. لجمع اغنياء الدنيا. ماعدا اغنياء سويسرا.. والسبب أن تلك البنوك تعطى فائدة سنوية لاتزيد على ٤ أو ٥٪ للودائع بها..

وإذا كان اغنياء العالم يقصدون بنوك سويسرا.. فالهدف ليس هو الربح المحدود.. الهدف هو إيداع هذه الأموال فى بنوك مضمونة وحسابات سرية.. لا يمكن الكشف عنها.. ولا تفتح أسرارها لكل من هب وبه من الحكومات والأشخاص.. أما مسألة الربح والفائدة.. فغير ذات مضمون..

أما بالنسبة لمواطنى سويسرا.. فالحال يختلف.. وهم يودعون أموالهم فى البنوك لهدف واحد وحيد.. هو الحصول على ربح مناسب.. لتمويل رحلة.. أو شراء يخت.. أو تغيير السيارة.. ولهذا فإن مسألة الربح والفائدة مهمة جدا لهم..

وقد استغل «تورنار» هذه النقطة.. وعلى طريقة الزيان والسعد.. أعلن عن تأسيس شركة لتوظيف الأموال.. تعطى أرباحا محترمة.. تزيد على ضعف ماتمنحه البنوك..

ولم يُصنِع «تورنار» وقته.. ففلس عتدا من الشركات التى تعمل فى كل شىء.. فى الأغنية والسياحة والنقل.. ويقدم إلى «تورنار» المئات والأكوف من المودعين.. وبالفعل.. وينفس أسلوب وطريقة الزيان.. أعطى أرباحا محترمة للمودعين..

لتنضاعف أعدادهم عنده.. وفجأة. اختفى «تورنار» عن سويسرا كلها.. ليكشف المودعون انه باع لهم الترامواى.. وأتته فص ملح وذاب.

ولأن الحكومة السويسرية حكومة حازمة فى هذه المسألة.. فقد بحثت وتحرت.. وعرفت أن «تورنار» قد هرب بأموال المودعين إلى جزر الباهاما . ليعيش هناك عيشة الملوك.. مستغلا أن الباهاما لا تسلم المحرمين الفارين إليها . وأنه لا يمكن فى الظروف العادية تسليم المحامى الهارب.. أو تسليم أموال المودعين. وتحركت الحكومة السويسرية.. ومارست ضغوطا على المسئولين فى جزر الباهاما . وهددت باتخاذ اجراءات انتقامية فورية . إن لم تسلم المحامى مع أمواله فورا..

وبالفعل.. تظلت الباهاما عن المحامى «تورنار» ليعود مكبلا فى الحديد إلى سويسرا.. لتبدأ محاكمته هناك. بتهمة النصب والاحتيال وتهديد استقرار المؤسسة المالية السويسرية..

ومع أن «تورنار» قد رد معظم أموال المودعين وتعهده برد باقى الأموال فورا ويون ابطاء. إلا أن ذلك لم يشفع له.. وتحرك الآن اجراءات محاكمته.. وتظهر مانشيتات الجرائد.. وعلى صدرها صورة «تورنار» ببذلة السجن . وتحته عبارات «المسيو» تورنار المتهم بأنه حاول النصب على المودعين فى شركاته لتوظيف الأموال..

أى أن تورنار الحرامى.. لا يزال «مسيو» فى عرف المجتمع رغم الفضيحة والتهمة الثابتة.. وحتى بعد سجنه.. سوف يصيب اسمه «المسيو» تورنار نزيل سجن كذا..

أى أن لقب «مسيو» كالجنسية لا يمكن سحبه سواء بالطبل البلدى.. أو المزمار السويسرى الشهير

وقد قررت والحال كذلك.. الإقامة فى سويسرا البلد عسى أن أتمتع بلقب «مسيو» إلى الأبد.. بدلا من العودة إلى مصر المحروسة.. لتتظر لى الهانم من فوق لتحت.. وتقول لى من طرف منقارها طلع لنا أنبوية بوتجاز فى الدور السابع.. و. بسرعة .



النارية في فرائش الزوجية



لأننى أعشق المشاغبة.. وأهوى للسيرات السلمية.. وأحب شغل
المظاهرات ومساائل اللبظ.. فقد فرحت لكونى فى سويسرا المحايدة الأمنة..
بعد أن اكتشفت منذ لليوم الأول لوصولى إليها.. أن هناك ثلاث مسيرات
سلمية مختلفة.. تطوف شوارع جنيف.. والمصيبة أنها فى حماية البوليس..
فهنا فى سويسرا لا يعرفون الأمن المركزى.. ولا يستخدمون تكنولوجيا
العصى الكهربائية.. ولا يجيدون التعامل مع القنابل للسيلة للموع..
والمعارض مثلى عندما يسعد.. يرزقه الله بمظاهرتين.. فما بالك بثلاث
مظاهرات فى نفس التوقيت.. وفى حماية رجال الضبط والريط؟
قررت الانضمام والمشاركة.. لكن للمشكلة أن للفرنسية ليست لغتى الأولى
أو الثانية.. أوحى العاشرة.. ولأن معلوماتى عنها طشاش.. ومن باب العلم
بالشئ.. فقد استعنت بالانجليزية وبيعض الفهولة.. لترجمة شعارات
للمظاهرات.. وفهمت أن اكبرها يطالب بالحرية للأجانب والملونين.. فانبسطت
من الشعار.. وانشرح صدرى.. واندمجت بسرعة.. فتسلقت كتف أقرب
متظاهر.. وهتفت بحرقه كما فعلت من قبل فى مظاهرات ١٨ و ١٩ يناير
١٩٧٧:

بالطول.. بالعرض.. حانجيب ممدوح الأرض.. وممدوح هو ممدوح سالم
طبعاً رئيس الحكومة وقتها.. واندمجت أكثر فهتفت: سيد مرعى.. ياسيد
بيه.. كيلو للحمه بقى بجنيه!
فجأة.. للتفت للسادة للمتظاهرون نحوى.. وكانهم فوجئوا بوجوبى..
فألقانى أحدهم على الأرض.. زرع بصل.. وتحولت بسرعة لهنف متحرك

لصفعاتهم ولكماتهم.. فانطلقت أجرى بعيدا.. وتحولت المسيرة السلمية الهائلة.. إلى سباق ماراثون محموم.. الكل فيه يجرى خلفي.. محاولا لارتقى على قفائي.. وعلى طريقة امسك حرامى.. هتفوا: امسك زنجى ملون.. فجريت بأقصى قوة.. وياروح ما بعدك روح.. والمظاهرة خلفى تقوى وتشك.. فطفت بهم شوارع جنيف.. من أقصاها لأقصاها.. ثلاث دورات كاملة.. وأنا أجرى.. فشر سعيد عويطة أو كارل لويس.. حتى استطغت خداع الغاضبين.. والاختفاء عن الأنظار.

وأبركت أن هناك خطأ ما قد حدث.. أولعل الحزب الوطنى قد أوصاهم بى خيرا.. أولعهم من اتباع ممنوح سالم.. أو مجانيب سيد مرعى.. لكنى اكتشفت بعد فوات الأوان.. أن شعار المسيرة لم يكن كما فهمت: الحرية للأجانب وللونين.. وإنما كان الشعار: التحرر من الأجانب واللونين.. وعرفت أن المتظاهرين من الجماعات العنصرية.. واتباع النازية الجديدة.. الذين يطالبون صراحة بطرد الأجانب من بلادهم.. ومنهم أنا طبعاً.. مع اننى لست زنجيا ملونا كما كانوا يهتفون.. إلا اننى لست حليوة بشعر أشقر وعيون زرقاء.. كما غالبية أهالى جنيف.. ومن هنا جاء الغضب.

غلطة صغيرة فى الترجمة من الفرنسية للعربية.. كانت أن قودى بحياتى.. وتحولنى من صحفى إلى مرحوم.. وتحيل عائلتى الصغيرة للمستقرة.. إلى ورتة شرعيين.. يطوفون أبواب المجلس الحسبى.. ووزارة التأمين والمعاشات.

ولأن قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة.. فإن معدوم البخت يلاقى الجماعات العنصرية فى سويسرا.. فسويسرا التى لم تعرف الجماعات العنصرية طوال تاريخها.. تعرفت عليها هذا العام فقط.. عندما تشرفت بزيارتها.. فإذا بالبلاد المستقرة الأمة.. تشتعل بالمظاهرات.. ضد العرب والأجانب واللونين.

وإذ بحضرتنا فجأة.. نصبح من اللطاريد.. ويتحول لهدف متحرك

للجماعات الغشيمة التي تجتاح أوروبا منذ سنوات.. والتي حلت بسويسرا هذا العام.. لتثبت أن سويسرا ليست فقط قطعة من أوروبا.. بل وقلبها النابض أيضا.

في انجلترا.. هناك جماعات الاسكين هيلز.. أو حليقو الرؤوس.. وهم يختلفون عن جماعات الليانك.. أو نوى الشعور الملونة.. فاليانك جماعات مسالمة.. وهم آخر بقايا الهيبيز.. أو هم آخر طبعة من الهيبيز.. يرفضون المجتمع نعم.. لكنه رفض سليبي مسالم.. في إطار رفضهم للحضارة الحديثة.. ويفضلون العيش معا في جماعات.. يسمعون الموسيقى.. ويبخنون للخدرات.. ويعيشون بطريقة بدائية..

أما الأسكين هيلز.. فهم جماعات نازية شرسة.. باسم الوطنية.. يهاجمون كل ما هو أجنبي.. ويؤمنون بأن انحسار الشمس عن الامبراطورية التي غابت عنها الشمس.. بسبب الأجانب.. وبالذات الهند والعرب والملونين.. لهذا فإن تلك الجنسيات هي الهدف الحقيقي لتلك الجماعات.

صحيح أن انجلترا قد احتلت بلاد الهند ومعظم البلاد العربية والأفريقية.. لكن تلك كان في الماضي.. ولهذا لا يجوز لتلك الجنسيات من وجهة نظر الجماعات العنصرية أن تعيد احتلال انجلترا.. وأن تتحكم في قطاعات عديدة.. أهمها تجارة القضاعي.. ومحلات السوبر ماركت.. لهذا تمارس الجماعات العنصرية الارهاب ضد تلك الجنسيات لاجبارها على الجلاء.

آخر حوادث الاسكين هيلز.. وقعت في قلب لندن.. عندما تراهن مجموعة من المراهقين على قتل أول أجنبي يمر من أمامهم.. وبالفعل وقفت أمامهم سيارة صغيرة.. نزل منها طبيب هندي.. فهاجمه للعنصريون للصغار.. وطمعوه بالمطاي.. وفزع الطبيب الهندي فهرب إلى سيارته وأحكم اغلاقها على نفسه..

ومع أن رجال الاسعاف قد انتقلوا إلى مكان الحادث إلا أنهم فشلوا في اقتناع الطبيب الهندي بفتح أبواب سيارته.. كان الرجل قد أصيب بصدمة

عصية.. وهياج نفسى.. فرفض فتح أبواب السيارة.. لينزف داخلها.. وحتى الموت.

فى فرنسا.. هناك جماعات النازيونال فرننت.. أو الجبهة الوطنية.. بزعامة السياسى اليميني مارى لويان.. الذى يرى أن خراب فرنسا والخمسة ملايين عاطل فيها.. بسبب للمهاجرين الجزائريين والمغاربة.. لهذا تنصب حملات النازيونال فرننت على افزع للمهاجرين فى احيائهم.. لحملهم على العودة إلى بلادهم.

آخر تقاليع مارى لويان.. هو للمطالبة باكتتاب قومى.. لجمع مبلغ كبير من المال.. يكفى لرفع عشرة آلاف فرنك فرنسى.. لكل مهاجر مغربى أو جزائرى.. مقابل تركه فرنسا.. والعودة لبلاده.. وإلى الأبد.

وبالطبع.. فإن للمهاجرين من أبناء الجزائر والمغرب.. والذين تصل اعدادهم إلى ٣ ملايين مهاجر.. لا يكتفون فقط برفض الهجرة.. بل ويشنون حملات مضادة ضد جماعات النازيونال فرننت. والنتيجة أن الشارع الفرنسى يعيش للفوضى.. بسبب حملات الجماعات العنصرية والحملات المضادة لهم.

فى ألمانيا.. حيث الأحزاب النازية الجديدة.. يشنون الحملة ضد الأجانب.. وضد الأتراك بالذات.. بحجة أن للمهاجرين الأتراك استنزفوا الاقتصاد الألمانى.. وحولوا إلى بلادهم ٥٠ مليار دولار فى السنوات العشر الماضية، وهو مبلغ ضخـم.. يكفى لتشغيل العاطلين الذين ترتفع أرقامهم إلى ٦ ملايين عاطل.

ويتناسى الجماعات النازية.. أن العمالة التركية قد ساهمت فى ازدهار الاقتصاد الألمانى.. وأن تحويلاتهم هى مجرد جزء من أجورهم.. اقتطعوه ليسانعوا نوبهم فى بلادهم الفقيرة.

الغريب فى الأمر.. أن ألمانيا بالذات كانت تشجع الهجرة التركية إليها.. وقت كانت تحتاج إلى الأيدي العاملة.. لكن بانفجار الأزمة.. تناست ألمانيا

أفضال العمالة التركية عليها.. وبدأت الحملات الشرسة ضد المهاجرين الأتراك.

آخر حوادث الأحزاب النازية ضد المهاجرين الأتراك.. هو حادث قتل مهاجر تركي داخل أتوبيس نقل عام.. كان للمهاجر التركي يتحدث بالتركية مع صديق تركي.. فهاجمته مجموعة من شباب الحزب النازي بالمطاولي... قائلين له: إن عليك أن تتحدث الألمانية.. حتى لو كنت تتحدث إلى صديقك أو زوجتك.

ودفع للمهاجر التركي حياته ثمنا لحماقة واندفاع وغباء وعنصرية الأحزاب اليمينية النازية للمتخلفة.

وفي سويسرا الآن.. تقع حوادث.. نسخة بالكربون.. لما يحدث في إنجلترا وفرنسا.. وألمانيا.. وفي كل يوم يشتد عود الجماعات النازية العنصرية.. وهو أمر طبيعي.. في ظل الأزمة التي تعيشها سويسرا.. وهي الأزمة الطارئة التي تسببت في ارتفاع أرقام البطالة إلى ١٠٠ ألف عاطل.. لأول مرة في التاريخ السويسري.

ومن الطبيعي أن مجتمعا كسويسرا.. يعاني الأزمة والبطالة والفساد.. أن يتجه نحو اليمين.. يعني يتجه نحو التوقع.. والانتكفاء على الذات.. والاهتمام بالنفس.. والاحساس بأن الأجانب يأخذون فرصة المواطنين في الكسب والعمل.

وفي أيام الرواج الاقتصادي.. كانت قضية سويسرا وشغلها الشاغل.. هي اللاجئين والمهاجرين.. فتعداد سويسرا لا يزيد على ٥ ملايين نسمة.. ومن الطبيعي أنه مجتمع يحتاج إلى الأيدي العاملة.

وعندما انفجرت قبل سنوات الحرب الفيتنامية.. فتح السويسريون أراضيهم وأبوابهم أمام الهجرة الفيتنامية.. وعندما انتلعت الحرب الأهلية في سيريلانكا استقبلوا المهاجرين من التاميل.. على اعتبار إنهم مهاجرون مسيحيون.. يعانون الاضطهاد في سيريلانكا المسلمة.. وعندما عانى الأكراد

من القشتت بفعل الحروب الأهلية.. وجد للمهاجرون الأكراد فى الأراضى السويسرية. وطننا ثانيا وملذا لهم.

كانت الأبواب المفتوحة أمام للمهاجرين.. لا تقتصر فقط على حق الإقامة.. بل فتحت الأبواب أمامهم للعمل والدراسة أيضا.. وتكفل المجتمع السويسرى بتوفير للسكان الرخيصة.. والاعانات الاجتماعية.. والمرتبآت الشهرية.. حتى يتمكن اللاجئ الجديد من الاستقرار والإقامة والتكيف مع المجتمع الجديد.

لكن بانفجار الأزمة فى سويسرا.. بدأت الأصوات تطالب بإبعاد الأجانب.. وبينما سويسرا تحتفل بأعياد تأسيس الاتحاد السويسرى.. وممر ٧٠٠ سنة على إنشاء الدولة.. فوجئ الرأى العام هناك.. بالحرائق تشتعل فى مساكن المهاجرين.

ومن الواضح من طريقة إشعال الحرائق وتوقيتها.. أن مشعلى الحرائق.. أرادوا توجيه انذار مهذب للمهاجرين.. لأن الحرائق اشتعلت فى الصباح.. وقت كان للمهاجرين فى مدارسهم أو أعمالهم.. ولم يقصد مشعلو الحرائق.. قتل أحد المهاجرين.. وإنما قصدوا توجيه رسالة وانذار شديد اللهجة.. بأن تلك الحرائق يمكن أن تتكرر فى أوقات أخرى.. ويمكن أن تصيب السكان من للمهاجرين.

وكانت فضيحة.. لمجتمع يرفع شعارات حقوق الإنسان.. ويتبنى مشاكل المهاجرين.. ويفتح لهم الأبواب والشبائيك.. من أجل الهجرة والإقامة والاستقرار.

ومن الواضح.. أنه باستمرار الأزمة.. فإن نغمة العداء للأجانب.. لم تقتصر على المهاجرين من فينتام أو سيريانكا.. أو الأكراد.. بل تعلتها إلى الأقارب والجيران.. بالتحديد الفرنسيون والitalians والألمان.

فسويسرا.. التى تعد أراضى مفتوحة.. أمام الجيران.. لم تعد كذلك.. وسوق العمالة السويسرية.. التى كانت تتسع لنصف مليون عامل فى البلدان

المجاورة لم تعد كذلك.

فى الماضى.. كان العامل الفرنسى أو الايطالى أو الألمانى.. يغادر منزله فى بلاده فى الصباح.. قاصدا الأراضى السويسرية.. للعمل والانتاج.. ويعد الظهر.. أو فى المساء.. يعود مرة أخرى إلى بلاده.. فى فرنسا مثلا.. وفى جيبه مرتبه السويسرى..

وهذا يعنى أن العامل الفرنسى.. يعيش ويكل وينام فى فرنسا الرخيصة.. فى حين يعمل ويقبض راتبه من سويسرا الغنية.. تماما كالعامل المصرى.. الذى ينزح إلى القاهرة كل صباح من قليوب وبينها والزقازيق.. ليعمل فيها.. ثم يعود آخر النهار إلى بيته وأولاده وفى جيبه فلووس القاهرة.

كان العامل الفرنسى الذى يعمل فى سويسرا.. محظوظا بالفعل.. لأن مرتبه وبخله.. يبلغ أربعة أضعاف مرتب زميله الذى يعمل فى فرنسا الآن.. وفى ظل الأزمة.. توقف كل ذلك.

بدأوا بالمهاجرين من آسيا البعيدة.. وانتهوا بالمهاجرين من دول الجيرة القريبة.. ومع هذا تستمر الأزمة.. ويشهد نشاط الجماعات العنصرية.. التى ترى أن الحل هو المزيد من الانكفاء على الذات والمزيد من العزلة.. وتقوية المجتمع السويسرى.. من كل غريب ووافد.

الغريب فى الأمر.. أنه مع اشتداد هذه الأزمة.. بدأت تظهر فى المجتمع السويسرى عادات وسلوكيات غريبة.. لم يعرفها من قبل.

بدأت قيم الواسطة.. وكروت التوصية تظهر فى المجتمع السويسرى.. فى الماضى.. كان العمل للأفضل والأقوى.. والأكثر قدرة على الانتاج والعطاء..

الآن.. أصبح العمل للأقارب والمحاسيب والأصدقاء.. وماعدا ذلك.. يظل خارج سوق العمل.. حيث البطالة والتسكع فى الشوارع صباحا وظهرا وعصرا وطوال الوقت.

على أن أغرب ما فى الأمر.. هو الدعوة التى تتبناها الآن الأحزاب

العنصرية الجديدة.. وتطالب بتنقية المجتمع السويسرى من الشوائب..
والشوائب التى يقصدونها.. هم المهاجرون القدامى.. الذين تجنسوا
بالجنسية السويسرية.. وصاروا جزءا من النسيج السويسرى..
وفى جبال الألب مثلا.. حيث الحياة شاقة.. ويوم العمل يبدأ فى الحقل
منذ الصباح الباكر.. وهو العمل الذى اضطر العديد من النساء والفتيات
الصغيرات للهروب إلى مجتمع للمدينة الأكثر رفاهية.
فى تلك الجبال.. وجد الرجال حلا عبقريا.. لحل أزمة هروب النساء
الصغيرات والفتيات من العمل الشاق.. الحل هو الزواج من فتيات
آسيويات.. ومن أمريكا اللاتينية.. ومن افريقيا.. وهو زواج «مصلحة» يضمن
لهؤلاء الرجال حياة مستقرة.. ويضمن أيضا استمرار العمل الشاق فى
الحقول. الآن تطالب الجماعات العنصرية.. بإبعاد الزوجات الأجنبية،
وإبعاد كل من تجنس بالجنسية السويسرية من الرجال.. وهى دعوة
مرفوضة لكنها تقوى وتشتد.. فى ظل الأزمة الطاحنة.
وفى مواجهة الجماعات العنصرية.. ينظم الآن أنصار حقوق الانسان..
والمهاجرون الملونون.. مظاهرات مضادة ومسيرات سلمية.. تطالب بحق
للجتمتع.. فى العيش بسلام.. بعيدا عن منغصات ومطالب الجماعات
اليمنية.. التى تريد أن تحتكر الأراضي السويسرية لصالحها فقط
آخر تلك للسيرات.. نظمها الملونون.. ولخترت شوارع جنيف فى
الاسبوع للأضى.. وهى ترفع شعارات.. دعونا نعيش معا فى سلام..
فالمستقبل مشرق أمامنا جميعا.. بصراحة.. أعجبنى للشعار.. فتحمست له
كثيرا.. فانضممت للمسيرة.. فاندمجت.. فهتقت بالطول بالعرض.. حانجيب
معدوح الأرض.. فجأة تحولت المسيرة السلمية.. إلى سباق للماراثون.. لكل
فيه يجرى خلفى.. وهم يصرخون.. على طريقة امسك حرمى.. امسك
جاسوس أبيض.. وطفقت بهم فى شوارع جنيف ثلاث دورات كاملة.. فشر
كارل لويس.. أو سعيد عويطة!!



وقف الخلق.. ينظرون جميعا.. كيف اتسلق جبال الالب وحدى.. وقد قلت
 فى نفسى.. أن الجميع يتزحلق.. فلماذا لا تتزحلق نحن أيضا.. بالعند فى
 الاخوة الكاسحين ومحدودى الدخل.. من الأهل والأصحاب فى حر ورطوبة
 اغسطس القاهرة.. وبالعند فى صديقى محمد مستجير.. الذى قضى فى
 أوروبا عشرين سنة.. ومع هذا لم يصعد الجبال.. ولم يتزحلق مرة واحدة!!
 وقد أخبرنى العارفون ببواطن الأمور.. أن الزحقة لها أصول وقواعد
 صارمة.. فلا بد وأن نصعد لقمة الجبل أولا.. لكى نتزحلق إلى السفح..
 والصعود إلى الجبل مشكلة حقيقية.. لأن الجبل مغطى بالثلوج صيفا
 وشتاء.. ومحسوكم ضعيف فى علم الثلج.. لا يعرف عنه سوى أننا نضعه
 فى الماء لنشرب الماء الساقع صيفا.. فى حين أن للتعامل مع الثلج
 والجليد.. قواعد وتجارب وأسارا..

باختصار شديد.. اكتشفت اننى عديم الثقافة الثلجية.. لأننى أنتمى ولا
 فخر.. للثقافة الرملية.. بليل أن أشهر أشعارنا فى الفخر والحماسة.. عن
 الخيل والليل والبيداء وسنام الجمل.. فى حين أن أشعارهم الخالدة.. تدور
 حول الثلج والجليد الذى يعرفون منه عشرين اسما ونوعا.. وحول العاصفة
 والبرودة والصقيع.. والكلب «سان برنار».. أشهر أنواع الحيوانات..
 وأكثرها فائدة للإنسان.. ولولا أن الديانة عندهم تأتى فى المرحلة العاشرة
 من اهتماماتهم.. لعبدوا صاحبنا الكلب.. لأنهم يقيمون له التماثيل فعلا..
 ويسمونه سان برنار.. يعنى القديس برنار.. لسبب بسيط.. هو أنه الكائن
 الوحيد القادر على اقتحام العواصف الثلجية.. وتسلق الجبال الجليدية..
 لاتقاذ ضحايا الانهيارات وغرقى الثلج.. ومنكوبى الجليد.. والمحاصرين
 بفعل العواصف..

وهو قادر على الانقاذ.. بفضل حواس التشمع والتحسس والتصنت..
وهناك عشرات الحالات والأمثلة والحكايات.. لصاحبنا سان برنار.. ولهذا
يحفظ سكان الجبال ومتسلقوها بأنواع وأحجام مختلفة من سان برنار..
وينتاسمون معها اللقمة والعيش والملح.. ويكتبون فيها أشعار الحب والغزل
العفيف..

وقد وجدت لها فرصة.. كمبعوث للثقافة الرملية.. للتعرف على الثقافة
الجليدية.. وقد كنت أفكر في كتابة مخطوط ضخمة.. عن أسباب تقدم
الشعوب والأمم.. وربما كان الثلج هو أحد الأسباب.. ببليد أن معظم
شعوب العالم الأول في عصرنا السعيد.. من أصحاب المناخ الجليدي
والمزاج الثلجي.. بينما معظم شعوب العالم الثالث والرابع والخامس عشر..
من أصحاب المناخ الصحراوي.. الحار جاف صيفا والدفء ممطر شتاء..
فقلت ربما كانت ثقافة الرمال.. وأشعار الخيل والليل والبيداء تعرفني..
هي سبب تخلفنا.. وتقدمهم في المقابل..

وقد قررت التعامل مع المسألة عن قرب.. والتعرف على جبال الألب
الشهيرة.. وبالمرة نقتحم موسوعة جينز للأرقام القياسية.. باعتباري أول
مصري مغامر يتسلق جبال الألب.. بعد الصحفي الكبير محمود أبو الفتح
والملك فاروق.. فقررت أن أكون الضلع الثالث في المثلث الألبى..
والمصعود إلى الجبال.. حيث تبدأ رحلة الرحلة.. عدة طرق.. قال لي
الخبراء.. إن أسرعها وأسهلها هي ركوب التلفريك.. فتوكلت على الله..
وركبنا التلفريك قاصدين قمة الجبل.. حيث تبدأ الرحلة.. لاكتشاف
المجهول..

داخل التلفريك.. اكتشفت أنني مجنون رسمي.. بشهادة العقلاء
والمجانين.. فالتلفريك با هو إلا علية من الصفيح والألومنيوم.. بداخلها
دكتيتن خشبيتين متقابلتين.. والعلبة معلقة بخطاف في سلك معدني..
مشدود بين قمة الجبل وسفحه.. وتحرك العلية التي هي التلفريك..
صعودا وهبوطا بواسطة موتور كهربائي.. ويمكن للعلبة طبعاً أن تسقط في
أي وقت.. أو أن يعطل الموتور.. أو أن تكون الأقدار قليلة الذوق.. فتدخلني

موسوعة جينز للأرقام القياسية.. كاول واحد يموت من التفرير الاول فى حياته.

وتحسبا للظروف.. وزيادة فى الاحتياط.. وحتى لا أترك الفرصة لتماحيك الأقدار.. جلست متخشيا داخل التفرير.. أخشى أن أكبح أو أن أعطس.. فأخل بالتوازن.. فتقلب العلبة رأسا على عقب.. وعلى الدكة أمامى جلس شاب أحول.. ومعه بنت مثل لهطة القشطة.. يتباوسان ويتناغشان فى بجاحة.. دون خوف أو كسوف أو مراعاة لوجود محسوبيكم.. وقد جلست أحلق فى بجلحتهما.. وأتفرج على السينما السكوب المجسمة.. وأتعجب للأقدار التى ساقطت للولد مثل هذه السنيورة.. مع أنه يشبه أحمد نبيل.. فى حين حجبت عنى الأقدار واحدة مثلها.. مع اننى مسمسم وحليوة.. وقد فكرت من الغيظ والحسد.. أن أزغده فى جنبه.. أو أن أقرصها من خدها الملاحظ.. لتتحشم ويكفان عن هذا العبث القاتل.. لولا أننى خفت أن أقوم بحركة عنيفة مفاجئة.. فينقلب التليفيريك.. أو أن يكون الولد من النوع العصبي الحمش.. فيرمينى من الدور العشرين..

وبنتيجة للخوف والغيط والحسد.. اتخذت قرارا تاريخيا.. بتأجيل دراستى فى علم الأجناس.. وتأثير المناخ الثلجى على جنس البشر.. وقررت أن تكون رحلتى هى الأولى والأخيرة مع التليفيريك.. و.. أخذت شنطة هدومى.. ونزلت فى أول محطة.. فالتفرير كالاتوبيس تماما.. له محطات فى وسط الجبال.. قبل أن يواصل رحلة الصعود إلى القمة..

المحطة هى «فيريبية».. وهى مدينة صغيرة جدا.. محشورة فى حضن الجبل الضخم.. شوارعها صاعدة هابطة صاعدة مرة أخرى.. والأمطار تهطل دون توقف.. وبطريقة العرض المستمر.. ومع هذا فالسائحون بالكوم.. والحياة تبدو مستمرة ومستقرة.. والناس سعيدة وميسورة دون خوف من أرباب أو تطرف مجنون.. والوقت صيفا.. والصيف عندهم شهران فقط تطلع فيهما للشمس المشرقة.. التى تغرب بالصياغة والصعلكة.. رغم الأمطار المستمرة.. وهو أمر غريب.. أن تشرق الحياة فى مثل هذه الرقعة المحبودة فى حضن الجبل.. ما أن تمد بصرك.. حتى يحده

الجبل والثلوج.. ومع هذا هناك بيوت وحدائق ومنتزهات وسينمات ومطاعم وبيع وشراء.. وحركة وبركة..

ولو انتى مسئول أو حاكم بأمره.. لأمرت فوراً.. بإقامة مصانع للثلوج فى كل مكان فى بلادنا.. لأنه من العجيب أن الثلج يساعد على النشاط لا العكس.. فيخرج البنى آدم من بيته من النجمة.. ليبدأ رحلة الكفاح.. يكافح الثلوج المتراكمة طوال المساء أمام بيته تمنعه من الحركة.. ويكافح الثلوج المتراكمة على سيارته.. فيخترع جنزيراً يغطى إطار السيارة لتمكين من السير فوق الجليد.. وهو يشبه جنزير الدبابة.. ثم يخترع كساحات لكسح الثلوج التى تمتد عشرة شهور فى السنة.. ومع هذا لا يعرفون الكسل.. فيذهبون للشغل من السابعة صباحاً.. ينتجون ويزرعون ويحصدون ويعملون فى المصانع والمتاجر..

فى حين أن اخواننا أصحاب ثقافة الرمال.. الذين يتمتعون بالمناخ الصحو طوال شهور السنة.. والأرض عندهم منبسطة.. بلا جبال أو موانع أو عوائق طبيعية.. والشمس دافئة تساعد على الشغل والحركة.. والشتاء لطيف ناعم.. بلا عواصف أو صواعق أو رياح عاتية.. والبحر صاف رائق.. لا يعرف الغضب والثورة.. أو الأعاصير التى تقتلع كل أشكال الحياة.. ومع هذا فشعوب الرمل كسلانة.. نائمة فى العسل.. تعمل على سطر.. وتترك عشرة سطور.. لو أمطرت السماء مرة.. لجلسنا فى بيوتنا.. ننعى حظنا الدكر.. وقد تعطلت المواصلات العامة.. وغرقنا فى بحور الطين المتحركة.. وهرب سائقو التاكسى الأنذال من الشغل.. بحجة المطر وجو المطر..

ومع أن الهدف من الرحلة هو الزحقة.. فقد اكتشفت بسرعة.. اننى لا أستطيع الزحقة.. لسبب بسيط.. هو أن الثلوج الموجودة فى هذا الوقت من السنة.. هشة جداً.. بسبب حرارة الصيف.. ويسبب انخفاض مستوى المدينة بالنسبة للجبل.. وأن الزحقة لا تتم سوى فى المدن ذات الارتفاع الكبير.. وهو ما يتطلب مواصلة الرحلة بالتلفريك المربع.. وقد فضلت أن أتمشى فى الحدائق والغابات.. كما يفعل باقى السائحين..

ولكن اولاد الحلال.. عندما رأوا تلهفى على شغل الزحلقة.. نصحونى بالذهاب إلى صالات التزحلق المغطاة.. فالمتعة واحدة.. وهى صالات كبيرة مفروشة بالثلج الصناعى.. والحذاء هناك بالايجار.. وهو حذاء مخصوص.. له سن مدبب كالسكين.. لزوم الغرز فى الثلج.. والزحلقة واقتحام دنيا الجليد..

وقد دخلنا التاريخ من وسع.. بعد أن سجلت اسمى فى موسوعة جينز الشهيرة.. باعتبارى أول لاعب فى العالم. يسقط على أرض الملعب.. قبل أن تبدأ المباراة.. وكلما ساعده على الوقوف.. وقع من طوله.. وفشلت جميع محاولات بدء المباراة.. وهو أنجاز يحسب لحسوبيكم.. بعد أن فشل الحذاء ذو السكين المدبب فى الاحتفاظ بتوازنى.. وقد فشلت بدرجة امتياز.. مع أن العشرات من المتزحلقين والمتزحلقات.. يمارسون للزحلقة فى سهولة ونعومة ويسر..

وبقدرة قادر.. تحولت إلى ساحر هندى.. ما أن أمس واحدًا من المتزحلقين لأستند عليه.. كى أحفظ توازنى.. فأخذته ونقع سويًا.. وفى مرة أمسكت بمجموعة تتطلق بجانبي.. وقد أمسك كل منهم فى يد زميله أو زميلته.. فقلت فى نفسى لو أننى أمسكت بيد واحد أو واحدة منهم.. لأنطلقت أتزحلق بقوة الدفع الذاتى.. وببركة المجموعة.. لكن الساحر الهندى نجح فى إيقاعهم دفعة واحدة.. وسط صيحات الإعجاب أو الاستنكار.. لا أدري.. باختصار.. تملكنى الاحساس باننى السيد قشلة.. أو الفيل أبو زلومة.. يسبح فى بحيرة البجع.. مع مجموعة من السابحات اللغائات الرشقات الجميلات.. يفسد عليهن الاتسجام والمتعة.. ويعكر صفوهن.. ويقتحم ميداننا ليس ميدانه.. وقد أدركت أن الزحلقة فى الصغر.. كالنقش على الحجر.. وكركوب الدراجات.. لا يجوز ولا يمكن عمليًا تعلمها واتقانها فى سن الترهل والشيخوخة..

وغادرت المكان غير مأسوف على شبابى.. بعد أقل من عشرين دقيقة.. وقعت خلالها أكثر من مائتى مرة.. وهو رقم قياسى عالى.. ومع هذا لم أصب بكسر واحد فى ذراع أو ساق.. وهى معجزة بكل المقاييس..

وتسببت فى وقوع كل من اقترب من مجالى المغناطيسى.. وتسببت أيضا فى حالة من الهرج والمرج والارتباك.. لم تشهدا الصالات المغطاة.. طوال تاريخها الحديث والقديم.

المهم أننى لم أكن أعرف أن السقوط والوقوع.. سيجعلانى بمثل هذه الشهرة.. وعلو المكانة.. لأننى وبعد أن غادرت المكان.. جلست فى مقهى قريب.. التقت أنفاسى وأتحسس أطرافى.. وأحصى ما تبقى لى من فلوس.. بعد المغامرة العجيبة.. التى دفعت فيها الشئ الفلانى..

وبينما أنا منهمك فى العد والحساب.. فإذا بأكثر من عشرين ولدا وبتنا يلوحون لى.. وبعضهم تقدم ليصافحنى بحرارة.. والبعض طلب أخذ صورة تذكارية معى.. على أساس أننى مبعوث للضطارة الرملية.. فى زيارة لكوكب الثلج والجليد.. وقد قدرت أننا مادمنا فى اجازة.. والاجازة تحب للرح واللهو والانطلاق.. فقد قررت القيام معهم.. ومصاحبتهم.. عسى أن أحظى بالصحة الطيبة.. وعسى أن تعجب بى بنت مثل لهطة القشطة.. فتغير من تاريخ حياتى.. وتقنعنى بطلب اللجوء السياسى.. لدى حضارة الثلج والجليد..

لكن الاخوة الشباب والشابات.. اتجهوا لمحطة التلفزيون.. قاصدين قمة الجبل.. وقد فكرت جديا فى الصعود معهم.. لولا أننى أقسمت بأغلظ الأيمان أن لا أكرر التجربة.. فلخذت الاتوبيس قاصدا السفح وحدى..

فى الاتوبيس.. جلس الشاب الأحول وجواره البنت اللهلوية.. يتباوسان ويتناغشان.. وعندما فكرت أن أزغده.. أو أن أقرصها من خدها.. نظر لى من فوق لتحت ومن تحت لفوق.. فاحتضنت شنتطة هدومى.. وأغمضت عيني.. وأنا أنشد الخيل والليل.. والبيداء تعرفنى.. و.. رحت فى سبات عميق..!!



عليه العوض..

هرينا من المشاكل والزحام والعنف والتطرف.. وقطعنا تذكرة بالشئ
الفلانى.. لتتفسح وتتروح.. ونعاين على الطبيعة أوروبا الحضارة
والشطارة.. والتقدم والتكنولوجيا.. والرفاهية والديمقراطية.. وحقوق
الانسان.

فإذا بقليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة.. وإذا بأوروبا تقلب علينا
المواجع.. وتجلد ضمائرنا وعقولنا.. وإذا بها مزيلة حقيقية.. وبرميل حقد
أسود.. وتخلف وعنصرية.. وقرصنة وإهدار لأنمية الانسان.. علنا وعلى
قارعة الطريق..

والدليل.. إن أحدث بضاعة الآن فى أوروبا.. هى تجارة الأطفال.. وأقوى
مافيا.. هى مافيا سرقة وبيع الأطفال فى السوق السوداء.. وهى أقوى من
مافيا المخدرات والجنس والتهریب.. وكافة شئ يغضب الله.

الحكاية حقيقية.. والأمثلة عديدة.. والحالات صارخة.. تعكس بوضوح..
خيبة المجتمع الأوروبى.. وأزمته العميقة.. بعد أن فشل فى تجديد دمائهِ..
فاعتمد على القرصنة وسرقة الأطفال.. تحت شعار التبني.. بعد أن فشل
فى دفع أبنائه إلى الطريق الطبيعى.. للحمل والولادة.

الأوروبى.. أو الأوروبية.. يهرب من الحمل والولادة.. بحجة أنهما يعطلان
البنى آدم عن المتعة.. ويتسببان فى تزلزل الجسم.. وتحمل المسؤولية
المبكرة..

رفاهية المجتمع الرأسمالى.. حولت الانسان إلى أنانى بدرجة امتياز..
اهتمامه الأساسى بنفسه أولاً.. وثانياً وعاشراً.. وهمه الحقيقى هو الفسح
والاجازات والرحلات فى بلاد الله.. وحصص الجمانيزيوم.. ودروس التنس

والجولف والاكل والشرب والسهر.. والرقص والحفلات.. والصياغة والصعلكة.

والنتيجة أن المجتمع الأوروبي.. يعاني من مشكلة حقيقية.. ومعدلات النمو وزيادة السكان لاتزيد على نصف فى المائة سنويا.. وهى معدلات متدهورة بالفعل.. وبالمقاسية فإن معدل النمو بين شعوب العالم الثالث يقترب من ٨, ٣٪ سنويا..

بينما يعجز المجتمع عن تجديد دمائه.. فإن التكنولوجيا.. والتقدم الطبى.. قد لعبا دورا فى تعميق الأزمة.. فارتفع سن الإنسان.. وتراجعت معدلات المرض والوفاة.. والبنى آدم الأوروبى يعيش الآن حتى سن التسعين فى المتوسط.. أو الثمانين إذا مات فى عز الشباب.. وسن الاحالة للمعاش للمرأة هى الخامسة والستون.. وللرجل حتى الثامنة والستين.. يضاعف من الأزمة.. أن هؤلاء العواجز.. يشعرون بأنهم قد قاموا بواجبهم.. وأن من حقهم أن يستريحوا.. وأن يتمتعوا بمباهج الدنيا الفانية.. وبهذا فإنهم يقومون بالرحلات والسفر.. واهدار المال فيما لذا وطالب..

واكتشف الأوروبيون.. أن حوالى ٦٠٪ من المجتمع.. من أرباب المعاشات.. وحوالى ٢٠٪ من حجم المواطنين.. خارج سوق العمل.. لأنهم أطفال أو شباب صغير السن.. وهو ما يعنى أن ٢٠٪ من المجموع.. يتولى الصرف والاتفاق على ٨٠٪ من حجم المجتمع..

ومع أن بلدان أوروبا المختلفة.. قد قامت بتقديم التسهيلات والامتيازات لأبنائها.. فى محاولة لتشجيع عمليات الانجاب.. إلا أن المعدلات تظل متواضعة بالفعل.. فى سويسرا.. يفتحون حسابات مجانية للمواليد الجدد.. ويقدمون إليهم مرتبات شهرية.. وفى فرنسا يصرفون لكل مولود جديد حوالى ألف فرنك.. وفى بريطانيا.. يتكفلون بمصروفات المستشفى والحمل والولادة..

ومع هذا لا يرحب الشاب أو الفتاة.. بمسألة الحمل والولادة.. ويفضلون عليها تبني طفل جاهز.. يملا عليهم البيت.. بعد أن يكونوا قد زهقوا من

الجرى والصرمحة.

المشكلة أن التبنى الرسمى.. يحتاج إلى أوراق وتوقعات.. واجراءات ومخاطبات.. وشهادات من الأطباء.. والاختصاصيين الاجتماعيين والنفسيين.. ويتحایل الأوروبي على ذلك.. بالسفر فى رحلة إلى كوريا أو البرازيل أو افريقيا.. ليعود من هناك بطفل يتم شراؤه من مكاتب متخصصة فى بيع الأطفال..

أسعار بيع الأطفال.. تحددها قوانين العرض والطلب.. وتتوقف على الشطارة والفصال.. وسن الطفل ولون بشرته.. ونوع جنسه.. وعلى أى حال تستطيع أن تجد المطلوب فيما بين ١٠ آلاف و ٥٠ ألف دولار.. وأنت وشطارتك..

لكن المشكلة.. أن معظم هؤلاء الأطفال ملونون غالبا.. وهو عكس المطلوب فى بلاد تقس التفرقة العنصرية.. وتعشق الجنس الأبيض.

وقد جاء انهيار دول الكتلة الشرقية.. بمثابة الحل الأمثل الذى يرضى جميع الأطراف.. ولم يعد الشاب أو الشابة مضطرا للسفر إلى كوريا أو البرازيل.. لتبنى طفل.. لأن المنظمات والهيئات والعصابات المحترفة.. تقوم بالدور كله.. وما على الأوروبي.. إلا أن يحدد المطلوب بالضبط.. ويصله الطفل حتى باب بيته.. من الباب للباب..

والحكاية أن أوروبا الشرقية.. لها باع طويل.. وخبرة عميقة.. فى مسأ بيع الأطفال.. وفى الماضى.. وفى دولة مثل ألمانيا الشرقية مثلا.. وقبل انهيار سور برلين.. كانوا يلخضون أطفال الزعماء السياسيين المعارضين ويضمونهم لعائلات ترغب فى تبني الأطفال.. ومع أن هناك اتفاقا أخلاقيا ينص على عدم التكسب من عمليات التبنى.. إلا أنه كان هناك اتفاق ضمني بمساعدة العائلات التى تتخلى عن أبنائها.. وبهذه الحجة.. كسبت رومانيا والمجر وبولندا الكثير.. من عمليات تجارة الأطفال.. التى كانت موردا هاما للعمالات الحرة..

وعلى سبيل المثال.. تؤكد حكومة الدانمارك أنها أنفقت - رسميا - ١,٦ مليون مارك ألماني خلال فترة الثمانينات.. لشراء أطفال بلغ عددهم ١٢٠

طفلا من المجر.. بحجة التبنى..

وفى رومانيا.. وعقب انهيار نظام شاوشيسكو.. اكتشف العالم من خلال التليفزيونى الرومانى.. وجود منظمة خاصة.. لتنشئة الأطفال وإطعامهم.. بغرض بيعهم خارج البلاد.. وأن هؤلاء الأطفال قد انتزعوا من ذويهم بالقوة نتيجة للاختلافات السياسية..

وفى بولندا.. كانت الحكومة تطبق سياسة الباب المفتوح.. فيما يتعلق ببيع الأطفال.. وكانت تسمح لمن يرغب فى بيع طفله.. بالتقدم رسميا.. لتتولى الحكومة عمليات الوساطة والسمسرة.. والأجر والثواب مضمون طبعاً..

المصيبة الحقيقية.. أنه بعد انهيار الحكم الشيوعى.. وافتتاح عمليات بيع الأطفال.. لم تتوقف تلك العمليات.. ولكن النخاس فقط قد تغير.. لأن الحكومة لم تعد تتدخل فى عمليات البيع.. بحجة الخصخصة.. وتركت الباب مفتوحاً.. أمام المؤسسات والمنظمات الخاصة..

وبدأ المحامون الأمريكيون إلى الساحة.. وتولوا تأسيس مكاتب بيع الأطفال.. وأصبحت المسألة تجارية بحتة طبقاً لقوانين العرض والطلب يقوم بها رجال أعمال ومحامون محترمون..

وأصبح البيع من خلال تلك المكاتب.. بيعاً منظماً.. وبالكatalog.. يعنى تضع العائلة الراغبة فى شراء طفل.. المواصفات المطلوبة.. طفل أشقر.. ذكر.. عمره ٣ سنوات.. عيون خضراء.. أو زرقاء.. طويل القامة.. وهكذا.. وتتولى المكاتب المحترمة عمليات شحن الطفل المطلوب إلى أهله المحدد.. فى العنوان المحدد بالضبط..

أكثر من هذا.. تخصصت بعض المكاتب فى توريد الحوامل البولنديات للعديد من بلدان أوروبا.. لكي تمضى الأسابيع الأخيرة من الحمل.. فى أحد المستشفيات القريبة من العائلة التى ترغب فى التبنى.. وتتكفل العائلة بمصروفات الطائفة ونفقات الإقامة بالمستشفى وأتعاب التوليد.. ثم تتسلم الطفل فور ولادته مع دفع ثمن الطفل للمكتب المحترم.. الذى يتولى محاسبة الأم بعد ذلك.

وقد كشفت الصحافة الأوروبية.. عن المئات من المنظمات والمكاتب الخاصة التي تتولى تربية الأطفال في ظروف سيئة جدا.. بفرض أطعامهم فقط.. ثم بيعهم بعد ذلك.. وبعض هؤلاء الأطفال الذين تجاوزوا السن الطبيعية للتبني.. أو الذين يعانون الأمراض.. يتخلصون منهم.. بطرق غريبة.. منها القتل..

وبنتيجة لذلك كله.. ظهرت مؤسسة أمريكية جديدة.. تضم محامين ورجال أعمال.. للإشراف على هذه التجارة.. بفرض تحاشي القتل.. وهذه المؤسسة تتعامل مع الأجانب الذين يرغبون في تبني طفل.. خاصة هؤلاء الذين أنهكتهم إجراءات التبني الصارمة.. فتتولى تلك المؤسسة مهمة التخلص وإنهاء الأوراق.. نظير عمولة محترمة..

وفي عام ١٩٩٠ أرسلت منظمات حقوق الأطفال.. وهي منظمات محترمة تابعة للأمم المتحدة.. بعثات لتقصي الحقائق في عدد من البلدان.. خاصة رومانيا.. إلا أن الحكومة الرومانية رفضت استقبال البعثة إلا أنها أصدرت في ٦ يوليو ١٩٩١ قانونا جديدا للتبني.. لا يسمح للتبني إلا بتصريح خاص من الحكومة.. وقد اضطرت مكاتب بيع الأطفال.. للاختفاء تحت الأرض.. والتعامل في السوق السوداء..

وفي عام ١٩٩٢ نشرت مجلة أمريكية محترمة هي [U.S News

World Report] تحقيقا أكدت فيه.. انهيار سوق بيع الأطفال في كوريا.. وازدهار نفس السوق في روسيا.. التي دخلت الميدان وقامت بتصدير أعداد هائلة من أطفال روسيا ذوي البشرة البيضاء إلى العديد من بلدان العالم.. بدلا من أطفال كوريا ذوي البشرة الصفراء..

وفي ٥ مارس ٩٢.. خاطبت سفارة سويسرا في موسكو.. وزير العدل الروسي رسميا.. طالبة وضع قواعد محددة لتبني الأطفال.. بعد أن احتكرت ٨ شركات أمريكية عمليات بيع أطفال روسيا.. وهي الشركات التي تتقاضى عشرة آلاف دولار نظير الطفل الواحد.. وهو ما وجدته سويسرا مبلغا كبيرا.. وكانت تعرض ٥ آلاف دولار فقط للطفل..

وفى بداية عام ١٩٩٣ ناقش البرلمان السويدي.. ظاهرة سفر الحوامل البولنديات إلى السويد.. لوضع أطفالهن هناك.. بعد الاتفاق مع العائلات الجديدة التى ترغب فى الحصول على طفل.. وهو الاتفاق الذى تشرف عليه مكاتب أمريكية رسمية.. وأكد البرلمان السويدي.. أن الأسرة التى ترغب فى تبني طفل تدفع للمكتب الأمريكى ٤٠ ألف دولار.. لكن المكتب يكتفى بدفع ألف دولار فقط للام الحامل.. بالإضافة إلى مصروفات الولادة والسفر والانتقال..

وأكدت الصحافة السويدية أن ١٣٦ طفلا بولنديا تم تبنيهم عام ١٩٩٢ منهم ٦ أطفال فقط.. تم تبنيهم بالطريق الطبيعى.. فى حين تم شراء ١٢٥ طفلا فى السوق السوداء..

وفى المجر.. كشفت الأرقام الرسمية.. عن أن ١٢٨ امرأة رومانية عبرت الحدود للمجر.. للولادة هناك مقابل ٣٠٠ دولار للطفل يتقاضونه من مكتب أمريكى للتبني.. ويبيع المكتب الطفل بعد ذلك فى أوروبا الغربية مقابل ٢٠ ألف دولار للطفل الواحد..

المشكلة الحقيقية.. أنه لا توجد احصائيات واضحة لحجم تجارة وبيع الأطفال.. لكن المعلومات الكثيرة.. كافية جدا.. لنذكر أن المشكلة خطيرة بالفعل.. وهى المشكلة التى تصدرت اجتماع منظمات حقوق الانسان فى لاهائ منذ شهرين.. بالتحديد فى شهر يوليو.. حيث طالبت المنظمات بضرورة وضع قوانين صارمة للتبني.. كما طالبت أيضا الدول الغنية.. بضرورة مساعدة الدول الفقيرة.. التى تضطر لبيع أطفالها.. لكى تقف على قدميها..

ماذا أضيف..

أنا حزين قرفان.. وملعون أبو العلم والتكنولوجيا والحضارة والرفاهية والرخاء.



أنا والانتخابات وليس عروى



ولأننى أنتمى لجيل فراخ الجمعية . وطواير السكر والزيت.. فقد فرحت بالطابور الطويل الممتد على الرصيف أمامى.. وقد أدركت أنه طابور الجمعية السويسرى.. يبيع السيمون فيميه.. والجبن الجريير بالأسعار المدعمة.. لغلبة أوروبا والمحوى النخل هناك . ولأن الاحتياط واجب وحتى لا تقوتى الفرصة. فقد حشرت نفسى فى الطابور. وقد أخذت وضع الاستعداد.. فشمرت عن أكمامى.. وخلصت نظارتى. ووضعت ذيلى فى أسنانى.. انتظارا للحظة الاقتحام والهجوم وقد قدرت أن أى شىء أشتريه . هو مكسب حقيقى. مادامت الحكاية فيها طابور. وبغض النظر عن نوع البضاعة المهم أنها سويسرية مضمونة.. كالساعة من عيار ٢٤ قيراطا.. فى نهاية الصف.. وقفت أمام موظفة رقيقة. تصلح لأن تلعب باليه . أو أن تمثل فى السينما. وخصوصا أنها تشبه ليلى علوى أيام زمان.. قبل أن يفتح الله عليها.. فتاكل من وسع.. لتصبح مثل الحاجة فريال صالح . واعترف أننى وقعت فى غرامها منذ اللحظة الأولى.. فسألتها باستعطاف حقيقى يلىق بعاشق محروم.. أن تصرف لى فرخة أو اثنين كيلو بقيق مستورد .

واكدت لها أننى متزوج. وأقول.. فأشارت إلى ورقة صغيرة أمامها مكتوبة بالفرنساوى.. فقلت لها أننى غريب وغشيم . والغريب أعمى. أو أحول على أقل تقدير فتوات سعادتها الشرح والتفهيم فقالت أن الطابور خاص بالانتخابات. رغم غياب اليفط ولاقتات الدعاية والمصقات على الحوائط. التى يعرفونها هناك لأن الدعاية تتم عن طريق الاتصال الشخصى وخطابات البريد.. وقالت لى أن الاقبال على الانتخابات كبير هذه المرة.. لأن الناخبين يدلون برأيهم فى مسألة غاية فى الخطورة.. ويتعلق بتحديد مصير الجيش السويسرى.. بعدما طالب البعض بصريح العبارة.. بضرورة تسريحه والاستغناء عنه.. فأخفقتى الحماسة والوطنية.. وقد تنكرت محمد ثروت ببذلة الضابط. فوقف على الكرسي . أهتف من صميم قلبى.. أحفرها من خطورة تلك الخطوة . لأن الأعداء قد يستغلون سذاجة

السويسريين . فيهجمون على الأوطان في غفلة من الزمان . فتضيع سويسرا الجميلة . بسبب رومانسية أبنائها وطيبة قلبهم وقلة عقلهم . وغفلتهم وقد فرطوا في ترايهم الوطني . وشرفهم الذي يسال على جوائيه الدم طمأنتنى أختنا ليلي علوى وقالت وهى تضحك من عبطى وخيبتى القوية .. وقالت أن حكاية الأعداء المترصين على الحدود موضحة قديمة .. وأن الحرب العسكرية قد راحت عليها .. بعد أن تنازلات الدول الكبرى عنها .. لدولنا في العالم الثالث والرابع والخامس عشر . لسبب بسيط أن التطور التكنولوجى قد حسم المسألة .. ليصبح مجرد التفكير في الحرب مغامرة كبرى .. ثم أن الحرب الباردة قد انتهت هى الأخرى .. وفى الماضى كان السويسريون يخافون من شيح قتال الاتحاد السوفيتى النووية . أما الآن .. فقد استقرت الأحوال وانضم الروس للمعسكر الغربى والحمد لله . ثم أن العلاقات مع الجيران فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا .. أحسن من السمن على العسل .. ولا تنس أن سويسرا دولة محايدة أصلا . ليس لها فى الطور ولا الطحين .. ومن العبط والسذاجة والسفه الاحتفاظ بجيش يكل ويشرب ويتسلح ويترب ويناور .. على حساب دافعى الضرائب .

قالت الأخت الرقيقة . وقد رأتنى أضرب كفا بكف . إن الوطنية الحقيقية ليست فى الاحتفاظ بجيش لا وظيفة له . لكن الوطنية هى العمل والاجتهاد وزيادة الانتاج .. ولهذا صارت سويسرا واحدة من أعلى معدلات الانتاج .. وأعلى مستويات المعيشة فى العالم .. ولأنهم ديمقراطيون جدا .. فقد فضلوا الاحتكام للرأى العام وصناديق الاقتراع . لمعرفة مستقبل الجيش .. خصوصا بعد أن تعدت الشكوى من أن الجيش لا فائدة منه .. وأنه عبء حقيقى . ويكفى أن الجنود والقادة . يحصلون على إجازات اسبوعية كباقي الموظفين . يتركون فيها الحدود مفتوحة . ويستطيع الأعداء .. لو وجئوا .. الهجوم على البلاد يوم العطلة الأسبوعية . وعلى هذا . فمن الأجدى توفير فلوس التسليح ونفقات الدفاع .. التى لا لزوم لها ..

قلت للأخت ليلي علوى أحاورها : لكننى لاحظ غياب السيد اللواء مدير الأمن . والباشا الحكمدار مساعد المدير . ولا وجود للسيد مساعد الوزير لشئون الانتخابات والكمبيوتر .. ولا يوجد أثر للأخوة عساكر الأمن المركزى . أو للسادة فتوات الانتخابات ومنوبى المرشحين .. والتهتيفات والعائلات والعصبيات .. والبوكس والعصى والشوم وأتوتر والقلق ..

فسألتنى بهشة . وقد أدركت أنتى متخلف عريق : وما دخل الأمن والبوليس فى

العملية الانتخابية . ألا تعرف أنها انتخابات مدنية. يشرف عليها المحافظ . ويختار لمساعدته مجموعة من الموظفين العاديين وريات البيوت . من نوات السمعة الحسنة . اللاتى لم تصدر ضد واحدة منهم أحكام مخلة بالشرف . كالتهرب من الضرائب مثلاً.. وأنا شخصياً أعمل كمسكرتيرة فى شركة كبيرة . وأقوم بالإشراف على الانتخابات فى وقت فراغى..والتى لابد أن تجرى فى عطلة نهاية الأسبوع حتى لا يتعطل العمل وخطوط الإنتاج

ثم سألت لىلى علوى ناحيتى برقة ودلال. ثم أضافت لا تنس أن البوليس شخصياً.. يواجه استفتاء هاماً فى الشهر القادم.. للاستفتاء عن جزء كبير من خدماته وتقليص حجمه فى الشارع.. بعد أن اكتشفنا أن رجال البوليس لا يعملون . ويتقاضون فقط مرتباتهم نظير جلوسهم فى المكاتب.. بعد أن صار كل شىء يصل بالكوميتر.

فتحت فمى لأعبر عن دهشتى.. لكن صديقتى لىلى علوى أغلقته بيدها الرقيقة وهى تسألنى هل رأيت بالزمة عسكرى مرور واحدا فى أية إشارة من إشارات المرور!! إن الإشارات عندما تعمل اتوماتيكياً.. والمخالفات تحرر الكترونيًا.. فلا حاجة لنا إذن بعسكرى المرور «أبوصفارة».

أما عن الجرائم العادية. فلحسن الحظ. أن المواطن السويسرى.. يحمل داخله عسكرى بوليس متطوعاً . يقوم بالإبلاغ فوراً عن أية جريمة تقع أمامه . ولهذا يستطيع نصف عدد البوليس الحالى. القيام بالأعباء كلها . دون إخلال بالأمن والأمان. ازدادت دهشتى. فاقترت من صديقتى وقد وثقت بها تماماً . أشد على يدها . مؤكداً لها أعجائى بحكومتها الجريئة.. التى اختارت الطريق الانتخابى. لتنفيذ ما تريد.. فتستغنى عن خدمات الجيش.. وتقلص من قوات البوليس..

فنفخت لىلى علوى فى الهواء.. وقد نفذ صبرها . وسألتنى بحدة: ومن قال لك أن الحكومة- هى التى لجأت إلى الانتخابات لتستفتى الرأى العام.. ألا تعرف أننا بلاد ديمقراطية حرة.. ومن حق كل عشرة آلاف مواطن.. أن يجمعوا توقيعاتهم حول قضية من القضايا ليقيم العملة أو المحافظ.. بالنعوة إلى الانتخابات والاستفتاء . وأنه قد حدث أن تقدم عشرة آلاف مواطن بتوقيعاتهم بطلب إلغاء الجيش.. فتمت الدعوة للاستفتاء حول هذه القضية.. وتقدم عشرة آلاف مواطن آخر يقترحون تقليص أعداد البوليس.. وفى الشهر القادم سوف يذهب الناخبون للاقتراع حول هذا الاقتراح. وفى الشهر الماضى . ذهب المواطنون لصناديق الاقتراع للاستفتاء حول السماح لمزيد

من المهاجرين بالتجنس بالجنسية السويسرية.. وقبل شهر كان هناك استفتاء آخر حول الانضمام للوحدة الأوروبية.. التي تسعى الحكومة والشركات الكبرى للاتحاق بها.. لكن الناخبين يرفضون بشدة.

أقصد أن أقول أن الذهاب لصناديق الانتخاب حول القضايا العامة والخاصة يتم دوريا. بمجرد رغبة ١٠ آلاف مواطن وتوقيعهم على طلب بذلك.. أما بالنسبة لانتخاب رئيس الجمهورية فيتم بشكل مختلف.. كل سبع سنوات يذهب المواطنون لاختيار وانتخاب ٧ أشخاص ترشحهم الأحزاب السياسية المختلفة.. هؤلاء السبعة المرشحون يشكلون الحكومة فيما بينهم ويختارون واحدا منهم ليتولى منصب رئيس الجمهورية لمدة عام واحد فقط لكل منهم.. ثم يذهب الناخبون بعد انتهاء السنوات السبع.. لاختيار سبعة آخرين وهكذا..

انشكحت وانسجمت.. بحديث ليلى علوى الرقيقة.. فرأيت أن أعزمها على كوب شاي.. عسى أن تقرب الانتخابات ما بين قلبينا.. وفي المقهى القريب جلست ليلى علوى أمامي وببعض رقيقة متحمسة.. فقلت لها أن طريقتها في الاشراف على الانتخابات مشجعة جدا . وأنها أفضل رعاية للديمقراطية.. وأنها أحسن واحدة تنتخب في الدنيا . ومن المؤكد أنها ورثت ذلك عن الست والنها التي تحمل صورتها في ميدالية صغيرة . فقالت لي وهي تتفخ من الغبطة غلظا.. لأننا كجنس ناعم لطيف حديث العهد جدا بالانتخابات.. ولم تعرف السويسرية طريقها إلى صناديق الانتخاب سوى من عشرين سنة فقط.. بالتحديد في عام ١٩٧٣.. قبلها لم يكن مسموحا للمرأة بالتصويت.. على أساس أن تحديد المستقبل مقصور فقط على الرجال.. وحتى الآن وفي بعض المقاطعات السويسرية.. البالغ عددها ٢٤ مقاطعة.. من العيب أن تشارك المرأة في عمليات التصويت.. رغم أنه من حقها قانونا.. خصوصا في إقليم «اينزول» الذي يقع في الجزء الألماني من البلاد.. حيث يشارك الرجال فقط في أغرب طريقة للانتخابات.. حيث يجتمع رجال المقاطعة البالغون الذين يعملون ويكسبون عيشهم.. أما العاطلون فيمتنعون.. ويجتمع الرجال في ساحة عاصمة الإقليم.. بالقرب من مبنى البلدية.. حيث يصوتون بطريقة رفع الأيدي.. لأنهم يعتقدون أن تلك الطريقة هي أقرب الطرق الديمقراطية للتعبير عن الرأي.. وفي كل الأحوال.. سواء كانت الانتخابات برفع الأيدي.. أو عن طريق الاقتراع السري.. فإن المواطنين العائدين هم الذين يشرفون على المراحل المختلفة للانتخابات.. وحتى إعلان النتائج.. ولا دخل للادارة العامة للانتخابات التابعة لوزارة الداخلية.. لأنهم لا يعرفون التدخل الحكومي في العملية

الانتخابية.

قلت لصديقتي: وهذا يعني أن الحكومة تنفذ فقط مطالب المواطنين العاديين.. وتخضع لاراداتهم الحرة الديمقراطية.. قالت بالضبط. حتى لو كانت مطالب للمواطنين العاديين ورغباتهم ضد مصلحتهم الحقيقية. قلت لها: مش فاهم. قالت هذا ما حدث بالضبط قبل ستة شهور.

كانت الحكومة قد دعت منذ ٦ شهور إلى زيادة الضرائب على الأغنياء والشركات الكبرى.. ونوى الدخول المحترمة.. وأصحاب العقارات الكبيرة.. ولكن لأن أية زيادات في الضرائب تتطلب العوبة إلى الجماهير في استفتاء شعبي. فقد طرحت الحكومة مسألة زيادة الضرائب في استفتاء عام.. وخاضت الأحزاب السياسية المختلفة معركة ضارية من أجل هذا الاستفتاء..

أحزاب اليمين.. وبمبادرة لثيمة. وقفت مع الجماهير العريضة. تطالبها برفض الزيادة في الضرائب.. بحجة أن تلك الزيادة سوف تبدأ بالأغنياء ثم تزحف لمحدودي الدخل.. وأكدت الأحزاب اليمينية أنه من غير المعقول أن يتحمل الشعب ومحدودي الدخل أية زيادات في الضرائب.. لأن المرتبات محدودة بالفعل. تكاد تكفي أقساط الفيلا.. والسيارة وحمام السباحة في حديقة الفيلا وفسحة أو فسحتين حول العالم في السنة.. يا حرام..

بينما وقفت أحزاب اليسار تؤيد المشروع الحكومي. وتطالب الشعب بالموافقة على زيادة الضرائب.. لأن هذا المشروع يعفى أصحاب المعاشات والدخول المحدودة وصغار الموظفين من أية زيادة.. وأن الأغنياء فقط وكبار الموظفين.. وأصحاب الفنادق وحملة الأسهم في البنوك.. «وف يتحملون الأعباء الجيدة».

المفاجأة.. أن رجل الشارع المحدود الدخل.. قد صدق دعايات صحف اليمين. وذهب لصناديق الاقتراع ليرفض أية زيادة جديدة في الضرائب.. سواء للأغنياء.. أو لمحدودي الدخل.. ولاحظ أنه يوجد عندهم فقراء!

ولأن المسألة ليست لعب عيال. ولأن الحكومة ملتزمة بالاستفتاء الشعبي.. فقد خضعت للارادة الجماهيرية.. وتخلت عن مشروعها بزيادة الضرائب. لكنها اضطرت لزيادة مواردها بطريقة أخرى. عن طريق زيادة أسعار المواصلات العامة والغاز والكهرباء. والنتيجة أن محدودي الدخل قد تحملوا الزيادات المقترحة. بدلا من أن يتحملها الأغنياء..

قالت لي صديقتي: إن سويسرا ليست اللجنة الموعودة. كما يتصور البعض

وبالرغم من الديمقراطية التي ينعم بها المواطن هناك . فإن أحزاب اليمين هي السيطرة.. والتمكينة بفضل صحافتها وصوتها العالى. واسلوبها الشعبى فى التخاطب مع الجماهير.. عكس أحزاب اليسار . التي تجيد الحوار مع المثقفين والفنانين وطلاب الجامعة.. دون أن تتجح فى التسلل لرجل الشارع أوريات البيوت

والنتيجة أن الأغلبية دائما للأحزاب . التي تقود سويسرا باستمرار فى اتجاه اليمين.. ويكفى أن زيغلر أشهر مفكر سويسرى فى القرن العشرين. والذي كتب كتابه الشهير: «بنوك سويسرا تغسل أكثر بياضا».. والذي فضح فيه الدور الذي تلعبه البنوك فى لعبة غسل أموال المخدرات.. والذي يقود حريا ضاربة ضد ممارسات اليمين السويسرى . يكفى أن زيغلر هذا . وهو صاحب الشعبية الطاغية.. قد خسر الانتخابات أكثر من مرة . وفشل فى أكثر من محاولة لدخول البرلمان.. قبل أن ينجح فى ذلك قبل شهر قليلة.. والسبب فى فشله المتواصل.. يعود لدعايات أحزاب اليمين هذه.. وهى الدعايات التي بلغت حدا لم تعرفه سويسرا من قبل . عندما أرسلت تلك الأحزاب خطابات الناخبين تقول لهم بوضوح: لا تنتخبوا زيغلر.. عو سويسرا رقم واحد . والذي تخصص فى تشويه سمعة بلاده.. بين الدول والشعوب .

انسجمت تماما . من حديث صديقتى التي تنافس ليلى علوى زمان . فى جمالها ورشاققتها ورفقتها.. فطلبت لها «واحد لحمه».. لتكمل حديثها الرومانتيكى على ضوء الشموع . وأنا أفكر جديا فى البقاء فى سويسرا .. لأكافح معها ضد أحزاب اليمين.. وأقود المظاهرات دفاعا عن صاحبنا زيغلر . خصوصا بعد أن أكدت لى أن هناك مشروع قانون جديدا سوف يطرح للاستفتاء.. يسمح للأجانب . الذين لهم حق العمل والاقامة.. بالمشاركة فى الانتخابات.. والاتضمام للأحزاب السياسية ماداموا يدفعون الضرائب.. ويتمتعون بحقوق المواطنة ولكن..

فاتورة المطعم . أقنعتنى فورا.. بالاقلاع والمغادرة.. بعد أن اكتشفت أن الأنسة ليلى علوى الرقيقة الجميلة . قد أكلت خلال نصف ساعة.. بمرتب محسوبكم فى ٣ شهور كاملة.. تصورا.."



عاطلون ولكن الثرياء



نباية عن مواطني العالم الثالث.. قررت أن أساهم بشيء لله.. أو بحسنة قليلة.. لتحسين أحوال العاطلين في العالم الأول.. ولأن الأقربين أولى بالمعروف.. فقد قررت أن أساعد «روبير» صديقي السويسري العاطل عن العمل.. ضمن ١٠٠ ألف يقفون في طابور البطالة.. لأول مرة في التاريخ السويسري..

روبير بالمناسبة.. أشهر من نار على علم في حديقة «باستيون» أو حديقة الشطرنج في قلب جنيف..

هناك يلعبون الشطرنج على الواقف.. وبدلاً من رقعة الشطرنج الممدودة على المائدة بين اللاعبين.. تتسع ساحة الشطرنج لتصبح أقرب للمعب صغير للكرة.. خططت بالعشرات من رقع الشطرنج.. وقد تحولت قطع الشطرنج الصغيرة.. إلى دمي بلاستيكية كبيرة.. ويقف اللاعب وسط الرقعة كقائد طابية.. وأمامه جيشه البلاستيكي.. يحركه ويتحرك معه في الساحة الواسعة.. واللعب بالمجان طبعاً.

في حديقة الشطرنج عشرات اللاعبين والمتفرجين.. أشهرهم روبر.. رجل المواقف الصعبة.. يلعب نادراً ويتفرج معظم الوقت.. مهموم باستمرار يتحرك بعصبية.. وينتقل من رقعة لأخرى.. كخبير استراتيجي محترف.. يتابع المواقف.. ويراقب المعارك.. ويصحح الخطط.. ويتدخل في الوقت المناسب.. لحل المعضلات.. والإفراج عن الأسرى.. وإنقاذ من يحتاج لمساعدة.

وقد تدخل روبر في كل مرة أتورط فيها باللعب مع بعض من توسمت فيهم الطيبة وحسن النية وتواضع المستوى.. فإذا بهم يحاصرون قواتي في ركل من الرقعة.. وقبل أن أستسلم وأرفع الراية البيضاء.. يأتي

الفارس روبري فيراقب الموقف بسرعة.. ثم يشخط وينظر.. وكأنه صاحب الحديقة.. أو رئيس المجلس الأعلى للشطرنج فيها.. فيحرك قطعة يمينا.. ثم أخرى يسارا.. ثم يقولى إدارة المعركة لأفوز فى النهاية.. بصراحة.. غاظنى روبري بعصبيته.. وأصراره على التدخل.. لأن تدخله يخرجنى ويكسفننى.. وقد تحررت عنه فعرفت أنه عاطل عن العمل منذ عامين كاملين.. بالتحديد منذ الغزو العراقى للكويت.. وأنه شبه متفرغ للعبة الشطرنج فى حديقة الباستيون.

وقد خمنت أنه مادام الرجل يتدخل دائما لانقاذى من الورطات التى أضع نفسى فيها.. فلا بد أن يكون طالب احسان بطريقة مهذبة.. خاصة أن مظهره يوحى بذلك.. فالشورت المرقع لا يغيره.. والفانلة التى شيرت تبذل ألوانها بفعل الشمس والمطر وعوامل التعرية.. والشبشب الزنوية لا يفارق قدميه أبدا . وقدرت أنها طريقة سويسرية مبتكرة لطلب الاحسان من البهوات لاعبي الشطرنج.. وبدلا من أن يعصب عينيه.. ويكسر ذراعه.. ويدور بين المقاهى يهتف عشانا عليك يارب.. أو يسرح بأمشاط وفلايات.. فلا بد أن الرجل قد اختار الشطرنج وسيلة للرزق.. وحجة للتكسب..

ويعد أن تعددت غزواتى لحديقة باستيون.. صعبت على أحوال روبري.. وقدرت أن عصبيته وخلقه الضيق.. لابد أنها راجعة للأحوال الصعبة التى يعيشها.. فقررت مساعدته بطريقة لائقة. فبدأت فى التقرب إليه.. لتبدو الحسنة منطقية.

وتجاوب الرجل بسرعة.. كلمة.. فسيجارة.. ففئجان قهوة.. ثم عزيمة على ساندويتش طعمية محترم.. كلف ميزانيتى المتواضعة ٦ فرنكات.. يعنى ١٥ جنيها مصريا بالتام والكمال.. والطعمية بالمناسبة.. تباع فى قلب جنيف الأرستقراطية.. بداها واحد مصرى.. ثم انتشرت بعد أن قلده واحد تركى.. ثم دخل الاسرائيلى إلى الساحة.. لتنتشر محلات الطعمية.. التى يسمونها الهامبورجر المصرى.. أو الفلافل..

وانتهت حكاية العزائم مع روبري.. على مائدة فى مطعم شيك على بحيرة

«الليمان» السويسرية الشهيرة.. بعد أن قرر الرجل أن يرد على عزوماتي التي تكررت.. بعزومة على أنتركوت محترم.. دفع فيها ٦٠ فرنكا كاملة.. ليثبت أن الخير يبقى لأصحابه.. وأن الحسنة بعشرة أمثالها فعلا.. وليثبت أيضا أنه عاطل نعم.. لكنه ليس متسولا كما تصورت..

وصار الرجل صديقي.. واكتشفت أنه ليس عصيبا ولا يحزنون.. كل ما في الأمر.. أنه كان مفتاظا مني.. لعدة أسباب منها أنني لا أصلح للعبة الشطرنج التي تحتاج إلى التركيز.. ولا أكمل الخطط التي أبدأ بها الدور.. فأبدأ بداية طيبة.. ثم أنهار بسرعة بعد خمس نقلات.

على أن أهم ما كان يستفز رويير من حضرتنا.. هو إصراري على الذهاب للحديقة بالملابس الكاملة.. البنطلون والقميص والجزمة والشراب.. مع أنها حديقة.. وما يصلح للشغل والحفل والعشاء.. لا يجوز ارتدائه في الحديقة.. التي تحب الشورت والد تي شيرت والشبشب الزنوية.

صار رويير العاطل صديقي.. واكتشفت أن الشطرنج ليست هوايته الوحيدة.. بل إنه يهوى الكلام أيضا.. نافورة كلام مفتوحة فشر عمنا محمود السعدني.. يتكلم في كل شيء.. في الشطرنج والطقس.. والموضة.. والسياسة.. والتدبير المنزلي.. والرياضة.. والنساء.. والاقتصاد أيضا.. بحكم أنه درس اقتصادا وإدارة أعمال.. وتخرج في جامعة البولي تكنيك في لوزان.. قبل أن يعمل في شركة نستلة للألبان لمدة ١٥ سنة.. وصل خلالها إلى منصب المدير.. له بيت وزوجة وطفلان.. وقط سيامي وكلب صغير.. وسيارة يستخدمها أحيانا.. وشاليه في جبال الألب.. ويعيش في مستوى اجتماعي لا بأس به.. رغم الأزمة التي لا يعيشها وحده.. بل يعيشها المجتمع هناك.

وعندما اندلعت أزمة الكويت.. عرف رويير طعم البطالة.. قبلها لم تكن هناك بطالة في سويسرا.. بالمعنى المعروف للكلمة.. كانت البطالة مؤقتة.. ولأسباب مزاجية.. وليست لأسباب اقتصادية.. يعني «أخيذا» المتعطل.. يرفض العمل في المشروع الفلاني.. أو المكان العلاني.. ويفضل أن يبقى متعطلا.. إلى أن يجد العمل المناسب الذي يحلم بأدائه..

كانت البطالة موسمية.. لا تزيد على أسابيع قليلة.. يتطير فيها صاحبنا على النعمة.. إلى أن يجد العمل المناسب.. فى رحلة البحث عن الذات والهوية..

ولكن.. باندلاع حرب الخليج.. وانحسار التحويلات القادمة من الشرق الأوسط.. لتصب فى بحر البنوك السويسرية.. بل وسحب جزء محترم من الودائع الأصلية.. للصرف على الحرب وتحرير الكويت.. ثم إزالة آثار العدوان.. بالإضافة إلى توقف السياحة العربية.. التى تشكل عوائدها نسبة محترمة من الدخل القومى.. اضطرت البنوك والشركات الكبرى إلى الانكماش.. والانكماش يعنى تخفيض الانفاق.. يعنى بالبلدى الاستغناء عن جزء من العمالة.

فى البداية.. استغنوا عن خدمات ٥٪ من العاملين.. منهم صديقنا روبر . قالوا له معلش.. أزمة وتفتوت.. وانتهت الأزمة بعودة الكويت.. ولم يعد العاملون إلى أعمالهم.. فقالوا لهم: الوحدة الأوروبية التى لا نشارك فيها . فرضت علينا المزيد من الانكماش.. ولهذا استغنوا عن خدمات ٥٪ إضافية من العاملين.. وفى العام الماضى استغنوا عن خدمات ٥٪ أخرى والسبب هو الوفاق الدولى.. والنظام العالمى الجديد.. وفك دول المعسكر الاشتراكى.. التى أوقفت - كما يقولون - تحويلات زعمائها إلى بنوك سويسرا.. ليزداد الطين بلة . ولتزداد الأزمة استحقالا..

ما يغيظ روبر حقا.. هو أن الشركة التى كان يعمل بها - شركة نستلة - هى شركة احتكارية عملاقة بحق.. ميزانيتها ٤٠ مليار دولار.. يعنى أكثر من ميزانية دولة محترمة.. وهى رغم الأزمات التى فرضت عليها الانكماش داخل سويسرا.. سعت للتوسع خارجها.. فاشتريت شركات قهوة وألبان ومياه معدنية فى فرنسا وإيطاليا.. حتى تضمن لها موطئ قدم عندما تتحقق الوحدة الأوروبية.. التى ترفض سويسرا الدولة المشاركة فيها.. لكن شركة نستلة تشارك وتستفيد من تلك الوحدة.. على اعتبار أنها شركة أوروبية لها فروع فى فرنسا وإيطاليا..

والبطالة التى يعانى منها روبر مع ١٠٠ ألف عاطل.. من العمالة الفنية

الماهرة.. من خريجي الجامعات.. ومديرى البنوك.. وقناني المسرح والسينما.. وخبراء البورصة.. والكوادر الادارية.. وهذه البطالة لا تعنى مجرد التوقف عن العمل.. لكنها تعنى فى حقيقة الأمر موتاً وخراب ديار. فالتعطل عن العمل.. يعنى التوقف عن دفع الأقساط. وفى سويسرا كل شىء بالتقسيط المريح.. الشقة.. العفش.. السيارة.. الأجهزة المنزلية.. حتى النظارة الطبية ومصروفات العلاج.

ولهذا فإن البطالة لا تؤدى فقط إلى افلاس الأفراد.. وإنما تؤدى أيضا لافلاس الشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية.. وبالتالي تؤدى لافلاس البنوك.. عصب الحياة الاقتصادية فى سويسرا.

ثم إن البطالة هناك.. مشكلة نفسية.. فالسويسرى يعشق العمل ويقدسه.. ويؤمن بأن العمل حق وواجب.. رغم أنه لا يعرف الأغاني الوطنية.. ولا توجد عندهم أغنية اسمها سويسرا هى أمى.. «رونها» هو دمي!!

وكلمة «رونها» تعود إلى نهر الرون.. أشهر الأنهار السويسرية.. ويشبهه ترعة مصرية متواضعة.. ومع هذا يقصدونه ويحترمونه بالسلوك والعدادات.. وليس بالأغاني والخطب.

وسويسرا هى الدولة الأوروبية الوحيدة.. التى يعمل فيها العامل ٤٢ ساعة اسبوعيا.. وترفض نقابات العمال فيها تخفيض ساعات العمل إلى ٤٠ ساعة كما فى فرنسا.. أو ٣٥ ساعة كما فى إنجلترا..

ولأنهم يحبون العمل.. فالبطالة شىء عارض.. غير طبيعى.. يحتاج العرض على الطبيب النفسى.. ليؤكد للمتتعطل أنه كويس وبخير.. وأن التعطل عن العمل.. لأسباب خارجة عن إرادته.. ولأسباب كونية لا تتعلق بكفائته الشخصية..

وإمعانا فى حسن النوايا.. تأمر الحكومة للمتتعطل بإعانة مناسبة.. تحفظ له مستواه الاجتماعى.. فى واحد من أكثر المجتمعات رفاهية فى العالم.

ومع أن سويسرا مجتمع رأسمالى عريق.. يطبق قوانين الرأسمالية

الصارمة.. إلا أنه في مواجهة الأزمة.. أكثر اشتراكية من بعض المجتمعات
اياها.. التي ترفع الشعارات والرايات عالية خفاقة ضد الامبريالية
والاحتكار.. وهي تحتكر وتحتكر وتتحكم وتعذب فى العامل والموظف
والأرملة وأصحاب المعاشات.. فيضطر الواحد منهم.. وحتى يحتفظ
بالحدود الدنيا للمعيشة اللائقة.. أن يعمل فى الصبح مهندسا.. وبعد
الظهر نجارا.. أو نقاشا أو سائق تاكسى.. أو يعطى دروسا خصوصية.
المجتمع الرأسمالى.. وللأسف الشديد.. فى حالة التوقف عن العمل..
يعطيك فوراً.. اعانة لتواجه متطلبات الحياة.. وهي اعانة تختلف من دولة
لأخرى.. فى انجلترا يعطونك اعانة تكفى لاطعامك عيش وهامبورجر .
وهي مثل العيش والطعمية فى مجتمعاتنا.. وفى فرنسا يعطونك اعانة
تكفى لكل العيش الحاف.. أو عيش وسجق.. يعنى اللحم الصريح
ممنوع .

أما فى سويسرا.. فالحال يختلف.. لا تنسى الحكومة أن السويسرى
يعشق العمل.. وأن تعطله لأسباب خارجة عن ارادته.. لهذا فمقامه
محفوظ.. واعانة البطالة تقترب من قيمة المرتب.. بالتحديد ٧٥٪ من
المرتب.. وهي اعانة تكفى لدفع جميع الأقساط.. أقساط البيت والعفش
والسيارة.. وشراء لحم محترم من عند الجزار.. وينزين للسيارة والذهاب
للسينما والحلاق.. وشراء مغليات للكلب وجرس للقطعة.. وتكفى أيضا
لتمويل رحلة نهاية الاسبوع فى شاليه الجبل.. حيث الترحلق على الجليد..
بالمنااسبة.. الحد الأدنى للمرتب فى سويسرا.. حوالى ٢ آلاف فرنك..
يعنى بالبلدى الصريح.. سبعة آلاف وخمسمائة جنيه مصرى فى أول كل
شهر.

ومع أن عدد العاطلين فى سويسرا.. لا يزيد على ١٠٠ ألف متعطل..
لكنها نسبة مرتفعة بالفعل.. صحيح أنها ليست مثل فرنسا حيث عدد
العاطلين ٥ ملايين.. أو بريطانيا حيث يقفز عددهم إلى ٤ ملايين.. أو
المانيا حيث تسجل أرقام البطالة ٦ ملايين.. ولكن لو عرفنا أن مجموع
سكان سويسرا لا يزيد على ٥ ملايين نسمة.. نصفهم بالضبط من أرياب

المعاشات.. يعنى سنهم فوق الخامسة والستين وهذه مشكلة أخرى بالاضافة إلى الأطفال والتلاميذ وطلاب الجامعات وريات البيوت. ويتوقعون فى سويسرا.. ألا تستمر الأزمة طويلا.. ويؤكدون أنها فى طريقها للانحسار.. فالوحدة الأوروبية التى تدق الأبواب.. والتى فرضت الانكماش على الاقتصاد السويسرى.. لن تلبث أن تدعم هذا الاقتصاد.. فسويسرا بموقعها المتوسط من أوروبا.. مثل الواحة والجنة والطم المنشود.. ولن تستطيع أوروبا الموحدة تجاهلها طويلا.. ثم إن بنوكها لاتزال تجتذب الأموال.. سواء الأموال النظيفة.. أو القذرة.. ذلك أن تلك البنوك تجيد جيدا.. لعبة غسيل الأموال.. بفضل الحسابات السرية.. ولعبة انتقال الأموال من حساب لآخر.. حتى تخرج فى النهاية نظيفة ناصعة.

وكانها غسلت بمسحوق من مساحيق الغسيل.. التى تخصص تليفزيوننا المحترم فى الاعلان عنها والترويج لها.. بيناته الراقصات اللهلويات.

المهم.. أن سويسرا التى عرفت مؤخرا طعم البطالة.. وعرفت معنى البقاء فى البيوت نهارا.. والتسكع فى الحدائق العامة والمقاهى والبارات ظهرا وعصرا وكل الوقت.. لم تعرف بعد ظاهرة التسول والمتسولين.. الشحاذ فى سويسرا.. أجنبى دائما.. وتلميذ فى الجامعة غالبا.. وهو يتسول بالفن والموسيقى.. يفرش ألوانه وطباشيره وأصباغه على الرصيف.. ويشخبط بها على الأرض لوحات فنية متواضعة أو رائعة.. وقبعته بجواره.. وأنت وذوقك.. تحكم على مستواه الفنى والاجتماعى.. وتترجم هذا الحكم إلى قروش قليلة.. وأنت حر.. تضع فى القبعة خمسة سنتيمات.. يعنى خمسة قروش.. أو تضع فيها فرنكا أو عشرة فرنكات.. أنت حر.

أو أن يصعد «أخونا» المتسول الفنان.. إلى الترام.. أو القرولى باس المكتشر جدا فى شوارع سويسرا.. وفى يده جيتاره أو زمارته.. يعزف لك

مقطوعة من تأليفه.. أو من تأليف المرحوم بيتهوفن.. وأنت أيضا حر.. تعطيه أو تديره لظهورك.. وسواء أعطيت أو طنشت.. سيقول لك بأدب «مرسى» يعنى شكرا فى كل الأحوال.

ونتيجة لذلك.. يشهد ترام جنيف.. أو شوارع وميادين سويسرا.. فرقا موسيقية عديدة.. من أوروبا وأمريكا اللاتينية.. ومن اليابان والهند ومن أفريقيا.. كل فرقة تقدم لك فنونها بالمجان.. أو بقروش زهيدة.. وحسب امكاناتك.

وقد تمنيت لو رأيت شابا مصريا.. أو فرقة موسيقية من ثلاثة أفراد.. يعزفون موسيقى السمسمية.. أو أغانى الأفراح الفلكورية.. وأضمن لهذا الشاب أو لتلك الفرقة.. أن يحقق ثروة لا بأس بها.. والمكسب بالنصف.. المهم.. أن صديقنا رويير.. قابلنى فى الاسبوع الماضى.. فرحا متهللا.. وكأنه فتح عكا.. قال لى خلاص.. أخذت اجازة من البطالة.. وأفكر فى زيارتكم فى مصر.

قلت له: اجازة من البطالة.. يعنى اشتغلت.. ألف مبروك.. قال لى: لأ طبعاً.. الحكاية أننا كعاطلين عن العمل.. نضطر للذهاب مرة واحدة اسبوعيا لمكتب العمل.. لنختم بطاقة التعطل التى بموجبها نقبض تعويضات البطالة.. ولكننا شكونا.. قلنا إن من حقنا كعاطلين محترمين.. أن نأخذ اجازة.. نتوقف فيها عن ختم البطاقات.. لنستجم قليلا.. وقد فكرت وفكرت.. وقررت أن أحضر إليكم فى مصر.. فى اجازة لمدة ثلاثة أسابيع.. وأريدك أن تنظم لى رحلة مناسبة..

قبل أن أذهب.. قال لى رويير.. لا تنس من فضلك.. اننى عاطل نعم.. لكنى لست فقيرا.. وأفضل النوم فى فنادق خمسة نجوم.. والأكل فى المحلات المحترمة.. أما حكاية الفلافل والهامبورجر المصرى.. فاسمع لى..

ولا تنس أن تكتب لى بجميع التفاصيل..



وهكذا.. وكما فى الأفلام العربى. مع اقتراب كلمة النهاية.. وقبل يومين فقط من مغادرتى للأراضى السويسرية.. وقعت فى غرامى حسناء كما فى الكتالوج.. بىضاء كاللبن الحليب.. طول وجمال ونضارة وشطارة وشياكة وشباب ومرح وانطلاق.. ولا أخفى أن هذا الحب قد أشعل ثورة الشك فى نفسى. ومن المؤكد أن هناك أسبابا عميقة وراء هذا الوجد والهيام.. وربما تكون حبيبة القلب من هواة جمع التحف والأنتيكات.. أو من المهتمين بغرائب الكائنات والمخلوقات.. أو يجوز أن تكون أمها فى «ساعة تجلى».. قد صبت عليها لعناتها.. فتمنت لها سوء المصير.. أو ربما قد تكون قد وقعت فى غرامى.. تعبيرا عن رغبتها فى الخلاص من الدنيا الفانية.. وكنوع من الرفض العنيف.. والانتحار المعنوى.. خصوصا أن حالات الانتحار الواقعى عندهم مرتفعة جدا.

ورغم التقدم والتكنولوجيا والحضارة والثروة.. ورغم أنهم يعيشون فى أغنى بلد فى العالم.. ولا يعرفون الفقر الذى نعيشه وتعرفه معظم بلدان العالم.. حتى فى أمريكا نفسها.. إلا أنهم ينتحرون من الزهق ومن التخمّة.. ومن فرط الانبساط.. لا فارق بين بنت وولد.. شاب وعجوز..

إلا أن صديقتى الجميلة.. أخرجتنى من تساؤلاتى الفلسفية العميقة.. بتساؤل أعمق.. عندما سألتنى عن مقدار ثروتى بالضبط.. وعن تفاصيل تحويدة العمر.. وكم أملك بالمليم.. ولعب الفأر فى «عبى».. فريما تكون «داخلة» على طمع.. والنفس طبعاً أمارة بالسوء.. فريما تصورت أننى مليونير من الأخوة العرب.. الذين استقروا فى

سويسرا.. ويسكنون قصور الألب ويشكلون جالية كبيرة.. تلعب بالفلوس وغير الفلوس..

ولأن ملامحى وتصرفاتى لا توحى طبعاً بأننى مليونير عريق.. فريما تصورت حبيبة القلب.. اننى أحد الأغنياء الجدد.. الذى أثروا من تجارة المخدرات.. أو توكيلات البترول.. وهم كثيرون بالمناسبة فى سويسرا.. ومنهم مصريون بالكوم.. يفضلون البقاء بجوار أموالهم.. بعد غسلها وإيداعها فى البنوك ذات الحسابات السرية.. التى لا تسمح للغريب بالاطلاع عليها..

أعرف مليونيراً مصرياً.. بدأ قبل سنوات قليلة مشوار النجاح.. عندما كان تلميذاً يدرس الفندقية فى مدينة لوزان.. وبالصدفة تعرف على مسئول بترولى مصرى كبير.. وتوثقت الصلة.. فأصبح طالب الفندقية وكيلاً لسعادة البية المسئول.. فى العديد من الصفقات تحت الترابيزة.. ويأسم الطالب الصغير.. عقد المسئول الكبير عدداً من الصفقات غير النفطية.. وتخصص بعد فترة فى بيع البترول المصرى فى السوق السوداء لجنوب أفريقيا.. وبأسعار مضاعفة.. لأن جنوب أفريقيا وقتها كانت تواجه أحكام المقاطعة الاقتصادية من معظم دول العالم.. وبعد سنوات لعبت اللعبة.. فتحول الطالب إلى مليونير.. ثم أصبح شريكاً لحضرة المسئول الذى أعفى بعد ذلك من منصبه..

وربما تصورت حبيبة القلب.. اننى مليونير من أياهم.. قادر على مواجهة مصروفات الزواج.. وشراء الشبكة والمهر والنجف والسجاجيد وأجهزة المطبخ الكهربائية.. وهدية لزوم أم العروسة وهديتين من أجل خاطر عيون خالة العروسة..

إلا أن صديقتى الجميلة.. طمأنتنى بأنهم لا يعرفون مسألة المهر والشبكة.. لأن الزوج والزوجة يتقاسمان جميع مصروفات الزواج.. بعيداً عن الأهل والأقارب.. وأكدت لى أنها تريد أن تعرف إمكاناتى المادية.. وتفاصيل تحويشة الخمر.. لتحسب بالضبط مقدار ما نملكه معاً.. بعد أن تضع زيتها فى دقيقتى.. وفلوسها على فلوسى.. لنبدأ أول

خطوة فى رحلة المستقبل بشراء شقة مناسبة تصلح «لفخ» الزوجية المرتقب.

قالت لى صديقتى أن متوسط سعر الشقة الصغيرة. لا يزيد على مائتى ألف فرنك.. يعنى حوالى نصف مليون جنيه مصرى بالتام والكامل.. وقبل أن أقفز من البلكونة.. هريا من فكرة الزواج.. طمأنتنى باننا سوف نشترى الشقة والعفش والستائر والسيراميك الملون.. وفركب سيارة آخر موديل.. وننتفع حول العالم.. بالتقسيم المريح.. والفضل لبنوك سويسرا الغشيمة.. التى أدركت مبكرا.. أن البنوك ليست مجرد حصالة فلوس.. إنما هى وسيلة للانعاش الاقتصادى.. وحركة الأموال.. والحركة بركة.. كما يقولون ويفعلون..

والحكاية.. أن سويسرا كانت تعاني.. كمعظم بلدان العالم من أزمة الاسكان.. لكن البنوك بادرت بحل المشكلة جذريا.. على أساس أنه لا يوجد مواطن صالح.. يكسب فلوسه من عرق جبينه.. ويملك فى جيبه ثمن الشقة.. التى تبلغ الشئ الفلانى.

سعادتك تحتاج لشراء شقة.. فتذهب إلى البنك.. تطلب شراء الشقة فى المكان الفلانى.. يرسل البنك مندوبا خبيرا.. يعاين الشقة.. ويتأكد من متانتها.. ومطابقتها للمواصفات القياسية.. ومن أن سعرها مناسب.. ومن أن جميع الترخيصات والأوراق سليمة.. ثم يقوم البنك بشراء الشقة نيابة عن حضرتك.. ويسلمك مفتاحا نظير عشرة فى المائة فقط من الثمن الكلى.. ويقوم البنك بتقسيم الباقي على ٢٠ أو ٢٥ سنة تدفعها فى شكل أقساط شهرية.. وبذلك تضمن أن البيت متين جدا.. بشهادة خبراء البنك.. وأى غش أو تلاعب فى المواصفات يتحملة البنك.

أما عن أقساط البنك الشهرية.. فهى تقترب من قيمة الايجار الشهرى.. ولهذا يقبل الجميع على الشراء.. باعتبار أن ملكية البيت ستكون لك بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة.. وإذا فكرت فى بيعه قبل ذلك.. ستسترد ما دفعته مضافا إليه الأرباح.. وكأنك تودع أموالك

فى البنك.. وتسكن بالمجان..
 وإذا حدث وتوقفت يوما عن دفع الأقساط الشهرية.. يقوم البنك بالتحرى.. فإذا كنت تواجه متاعب مالية.. لا بأس.. يقوم البنك بتأجيل أقساطه لفترة.. أما إذا كنت نصابا حضرتك.. استولى البنك على الشقة فوراً.. ليبيعها لمشتري آخر من غير النصابين.
 فرحت جداً بوظيفة البنك الاجتماعية.. وسألت صديقتى عما إذا كان البنك يقيم موائد الرحمن.. ويوزع بطاطين وحلاوة المولد على الفقراء والغلبة.. فقالت لى: إن ما يقوم به البنك ليس حسنة أو صدقة على أساس أن الحسنة بعشرة أمثالها.. ولكنه بنك تجارى استثمارى.. يعرف أصول الريح والمخاطرة.. وهو بطريق غير مباشر.. يشجع عمليات البناء.. ويشجع المقاولين.. ويساهم فى حل أزمة الاسكان..
 بعد شراء الشقة.. تحتاج للعفش.. فتذهب إلى البنك.. الذى يقوم باقراضك لشراء العفش.. بضمان الشقة.. وحضرتك تدفع أقساطا شهرية على مدى ٣ سنوات.. ثم تحتاج سيارة.. فيشتريها لك البنك.. سواء كانت جديدة أو مستعملة.. بعد فحصها بدقة منعا للعفش والقهولة.. تحتاج لحمام سباحة فى حديقة الفيلا.. فيقوم البنك بالتمويل.. تحتاج لرحلة حول العالم.. فيسارع البنك لاقراضك.. وهكذا.. يلعب البنك دورا حقيقيا فى الإنعاش والزواج.. والسلف والدين..

وعمليا يدفع الموظف السويسرى.. حوالى نصف مرتبه فى صورة أقساط.. للشقة والسيارة والعفش واليخت وحمام السباحة.. وبعد ١٠ أو عشرين سنة.. تكتشف أنك مليونير حقيقى.. لأنك سددت ثمن الشقة التى قفز سعرها إلى مقدار الضعف.. وأنت تملك سيارة أحدث موديل.. وتمتلك شاليها فى الألب ويختا فى البحيرة.. وأنت تعيش فى يسر.. ومرتبك كله ملكك.. بعد أن سددت جميع الأقساط.
 وطبعا هناك مخاطر عديدة.. كأن يتعرض البنك لخسارة صغيرة.. نتيجة لتوقف أحد العملاء عن الدفع.. أو نتيجة لتعرضه لعملية نصب

سريعة.. ولكن المخاطرة هي طبيعة عمل البنوك.. ومن بين كل مائة أو ألف عميل.. هناك واحد أو اثنان نصابان.. وهى نسبة محكمة ومدروسة.. ويستطيع البنك تعويضها بسهولة..

راح الفأر يجرى ويقفز فى «عبي» واشتغل الكمبيوتر فى عقلى بسرعة.. بعد ١٠ أو ١٥ سنة يمكن أن أصبح من أصحاب الملايين.. بفضل الشقة التى سوف يقفز سعرها أضعافا مضاعفة.. ولكن ماذا عن المستقبل.. فيما إذا ما وقع الطلاق لا قدر الله.. خصوصا أن الشقة فى مصر من حق الزوجة.. فهل الحال كذلك فى سويسرا الغنية؟!

سألت صاحبتى.. فأجابتنى بعصبية واضحة.. بأننا مازلنا على البر.. وأن ما يربطنى بها لا يزيد على خاتم صغير قدمته إليها.. مؤكداً أنه من مخلفات المرحومة جدتى.. قدمه إليها جدى الباشا عندما تقدم يطلب يدها.. وأكدت لى أن صديقتها قالت لها أنه خاتم من معدن رخيص جدا.. يبيعهون فى منطقة سياحية اسمها خان الخليلى.. ومن غير المعقول أن أفكر فى الطلاق والانفصال.. قيل أن تبدأ رحلة الارتباط والزواج.. ومع هذا.. فإنه فى حالة الانفصال.. فإن الزوجة لا تحصل فقط على الشقة.. وإنما تحصل على نصف ثروة الزوج.. فتحصل على نصف الشقة.. ونصف العفش ونصف السيارة ونصف حمام السباحة.. ونصف فلوسى فى البنك.. وأبنى بهذا أتحوّل من مليونير حقيقى.. إلى مجرد نصف مليونير..

وعندما شاهدت حبيبتي علامات الخيبة والتراجع على وجهى.. قالت أنه من غير المعقول أن نحسب الأمور هكذا.. لأنه من المفترض أننا نعيش فى مرحلة الرومانسية والأحلام.. علينا أن نؤجل المشاكل للمرحلة القادمة..

وراحت حبيبتي تواصل حديثها الممتع والمسلى عن بنوك سويسرا.. فقالت أن البنوك مؤخرًا.. قامت بضربة ناجحة.. عندما قامت بشراء العديد من المخابىء النووية التى كانت تعاني من حالة الكساد..

والحكاية أن سويسرا المحايدة.. كانت تراهن على وقوع الحرب الذرية.. فقامت ببناء العديد من المخابىء النووية.. فى كل مكان.. سواء أسفل المباني الحديثة.. أو فى الأماكن النائية.. وفى الحدائق والميادين.. على أساس أنه لو وقعت الحرب النووية.. فإن تلك المخابىء كفيلة بحماية ليس فقط المواطن السويسرى.. وإنما الأجنبى الذى يبحث عن الأمان.. فيقوم بشراء مخبأ نووى..

ولكن.. بخروج الاتحاد السوفيتى من المواجهة.. وانتهاء الحرب الباردة.. وزوال فكرة الحرب النووية.. وجدت سويسرا نفسها فى أزمة حقيقية.. وقد قامت ببناء الكثير من المخابىء النووية.. دون أن تستطيع تسويقها..

فقامت البنوك بشراء تلك المخابىء.. ويدرسون الآن تحويل بعضها إلى أسواق.. أو مدن للملاهى.. خصوصا أن بعض المخابىء قد أقيم على مساحات شاسعة تحت الأرض.. ثم أن فكرة الرعب النووى لاتزال قائمة.. بدخول بلاد جديدة إلى النادى النووى.. كالصين والهند مثلا.. وساعتها سوف تقفز أسعار المخابىء للضعف.. وساعتها سوف تكسب البنوك كثيرا..

وهكذا.. تشارك البنوك فى جميع الأنشطة الحياتية.. فتقوم مثلا بشراء العديد من اللوحات الفنية.. ثم إعادة بيعها بعد ذلك.. وتريح ربحا لا بأس به..

وحتى اللوحات الجدارية الضخمة.. التى يقوم العاملون بتصميمها.. تقوم البنوك بشرائها.. وبذلك تضرب عصافيرين بحجر واحد.. فهى تساعد العاملين من ناحية.. ومن ناحية أخرى.. تقوم بدعاية غير مباشرة للبنك الذى يشجع حركة الفنانين العاطلين..

والحكاية.. أن بعض أخواننا العاطلين من الفنانين.. قاموا بالاستيلاء على بعض المنازل المرشحة للإزالة.. تمهيدا لبناء مساكن جديدة بدلا منها.. وقام هؤلاء الفنانون.. بتجميل جدران تلك المنازل بلوحات جميلة.. استخدموا فيها أساليب فنية حديثة.. لفتت إليها

الأنظار.. وشدت الانتباه.. إلى الحد الذي طالب فيه النقاد والمثقفون.. بوقف إزالة تلك المنازل الأيلة للسقوط.. حفاظاً على تلك اللوحات الجدارية الجميلة.. فقامت البنوك السويسرية بشراء تلك اللوحات.. وتسعى الآن لنقلها كاملة إلى أماكن جديدة.. و.. الريح مضمون طبعاً.. الغريب فى الأمر.. أن البنوك السويسرية.. التى تريح كثيراً.. لا تعطى فائدة على الودائع أكثر من ٤٪ سنوياً.. لأن الغرض من ايداع الفلوس بالبنوك.. ليس هو الريح.. وإنما الأمان وسرية الحسابات.. خاصة لأصحاب الودائع الكبيرة..

وتدعو البنوك السويسرية إلى نوع آخر من الاستثمار.. هو شراء الأسهم من البورصة.. ولأن المودعين لا يعرفون كثيراً فى شغل البورصة.. وخفايا الأسهم والسندات.. فإن البنك يقوم بالشراء نيابة عنهم.. ولهذا يساهم فى زيادة رأس المال والاحتياطى وسيولة الأموال لدى تلك الشركات.. والمكسب غالباً.. ضعف مكسب البنوك.. ولا يخدعك البنك.. لأنه يقول لك صراحة.. أن شراء الأسهم.. فيه مغامرة.. لأنه من الجائز.. أن تنخفض الأسهم فى الأسواق.. لكن البنك يقوم بتقليل المخاطرة.. عن طريق بيع حافطة أسهم.. تضم العديد من أسهم الشركات المتنوعة.. فإذا ما انخفض فيه سهم لأحدى الشركات فى البورصة ارتفعت فيه الأسهم الأخرى.

وعملياً.. فإن المواطن السويسرى.. الذى يتعامل فى البورصة عن طريق البنك.. يكسب ويربح أضعاف زميله الذى يفضل ادخار أمواله.. وحتى فى حالة الخسارة.. هناك شركات التأمين المتخصصة.. التى تغطى خسائر المودعين على الفور.. فالعملية مضمونة إذن.. والريح مؤكدة.. وهم لا يعرفون هناك نظام الفلوس التى تبقى بالكوم فى البنك.. سعياً وراء عائد سنوى محدود..

وقالت صديقتى الجميلة.. أن أغرب ما فى الأمر.. أن مديرى البنوك الذى يقودون الآن ثورة حقيقية فى النظام المصرفى.. ليسوا من

العواجيز.. أصحاب الخبرات العريضة.. بل هم من الشباب خريجى الجامعات.. الذين يملكون القمرة على الابداع والمغامرة.. وأنها تعرف شخصا مديرا لأحد البنوك.. لا يتجاوز الثلاثين من عمره.. ومع هذا استطاع بأفكاره المجنونة.. أن يعود بالملايين على البنك وعلى المودعين..

قلت لخطيبة المستقبل.. وقد فهمت تماما أصول اللعبة.. إنتى شخصيا أملك فكرة عبقرية مجنونة.. يمكن أن تحقق الملايين والملايين.. فنستطيع مثلا أن نطلب سلفة من البنك السويسرى نشترى سيارة زلمكة من أحدث موديل.. ثم نذهب إلى مصر نبيعها هناك.. بأضعاف سعرها.. ثم نشترى من مصر.. بعض البضائع المطلوبة فى سويسرا.. كبعض الخواتم ومجوهرات القالصور من خان الخليلي.. ولا مانع من اللوخية الناشفة والويكة لزوم اخواننا المصريين.. ثم نعود مرة أخرى لنطلب سلفة من البنك السويسرى.. لنودعها فى أحد البنوك المصرية لنستفيد من سعر الفائدة المرتفع.. فنسدد ما علينا للبنك السويسرى.. ونعيد استثمار الباقي.. وهكذا نتحول إلى أصحاب ملايين خلال عامين أو ثلاثة.. بدلا من الانتظار عشر أو عشرين سنة.. ويمكن حتى أن نستلف من البنك السويسرى.. ثم نفرهاريين إلى مصر.. دون أن نسدد ما علينا على اعتبار أننا من فئة الواحد فى المائة النصابين.. الذين يتعامل معهم البنك..

نظرت إلى خطيبتي.. وقد أمتقع لونها.. وقالت لى بعبارة مختصرة.. أنها كانت تتصور أننى شخص ملتزم.. وأست نصابا دوليا.. و.. خلعت خاتم الخطوبة.. وتركتنى مسرعة..

وكما فى الأفلام العربى.. لم أجز وراءها.. لأمنعها من الاقلاع والمغادرة.. وإنما وقفت أمام الباب أهتف باسمها مرتين.. وسألتها على فين..

فقلت وهى تغالب دموعها: سأتزوج مدير البنك!!

١٥

في مسألة الروايات و القيمة . الباب من الخل



مع أن الوقت في أوروبا بالذات.. من ذهب عيار ٢٤ قيراطا.. إلاننا نعرف الأصول والعيب.. ونمارس أخلاق القرية.. ونعترف بزعامة كبير العائلة.. وحتى لو كنا في رحلة بالشىء الفلانى.. ولا يصح ولا يجوز.. ولا يمكن أبدا.. أن نبدأ رحلتنا في جنيف السويسرية.. التى هى على بعد فرقة كعيب من لندن الانجليزية.. دون أن نتوقف عن الصراحة والصدق.. وأن نقوم باتصال تليفونى.. من باب جبر الخواطر.. الكبير العيلة.. وشيخ الطريقة.. ونأظر مدرسة الفكاهة والمسخرة.. عمنا وتاج رأسنا محمود السعدنى.. خصوصا وهو يمارس رياضة الكسل اللئذ.. فى فترة النقاهة الاجبارية.. بعد الأزمة الصحية الطارئة.

مع أن ناظر المدرسة.. وعلى طريقة المراكبية.. قد ألح فى عزومتى بلندن.. إلاننى اعتذرت وبشدة.. بعد أن تحول الولد الشقى مؤخرا.. من الفصيلة للمفترسة.. أكلة اللحوم.. إلى فصيلة المسالوق والسوتيه.. فلم تعد زيارته مسئلية كأيام زمان.. أيام اللحمة الهبر.. وطواجن المسبك والحمر والمشمز..

وأقر واعترف.. أن محمود السعدنى صاحب فضل.. وليس صحيحا ما يشاع.. من أننى تعرفت عنده على اللحمة لأول مرة.. وقبلها كنت من أتباع مذهب السيخ الهندى.. الذين ياكلون اللحم فى المناسبات الدينية.. والأعياد الوطنية.. ويقاطعونها باقى أيام السنة.. والصحيح.. أننى قبل معرفتى بالسعدنى.. كنت أوّمن بالاسلوب الرومانتيكى الشعاعى فى الطعام.. وأمارس الحكمة الخالدة: ما قل ودل.. وكنت أحب اللحمة عن بعد.. أغازلها وأحاورها.. وأبعد عنها.. من باب الدلع والدلال.. كنت أمر أمام الجزار كل يوم.. وأغنى مررت على بيت الحباب.. واكتب الشعر الجعيف.. وقصائد الغزل الحرافة.

وتعرفنا على السعدنى.. وفى لحظة طيش وتهور.. وبعد أن سقانا حاجة أصغرا.. انضممت فورا إلى الحزب المفترس.. لأصبح أحد كوادره البارزين.. أما وقد فقد الولد الشقى أهم ميزاته.. وتنازل عن هويته المفترسة.. فلماذا الزيارة أصلا.. والتى سوف تكون

على طريقة خالتي عندكم؟! ماجاتش..!!

ثم إنني حضرت لجنيف للاستمتاع والفرفشة.. مع أن سعر الدولار في النازل.. وفي الماضي كنا نستبدل الدولار بفرك سويسرى ونصف.. الآن تدهورت الأحوال.. فصرنا نستبدله بفرك واحد تقريبا. يعنى ارتفعت تكاليف المعيشة على الزوار والسائحين من أمثالى.. بمقدار خمسين فى المائة.. مما تسبب فى تدهور الموسم السياحى عندهم.. وانقطاع الجنسيات الدلارية. التى تتعامل فى العملة الأمريكية.. ومع هذا ويوصفى من محترفى شد الحزام.. ومدمنى السياحة والسفر.. فقد تعاملت مع البدائل المتاحة.. دون أن أفقد قدرتى على الاستمتاع والانسباط..

ولأن المواصلات مثلا فى سويسرا بالساعة.. يعنى تشتترى تذكرة للترام أو الاتوبيس.. وتستخدمها لمدة ساعة واحدة لا أكثر.. ويعدها تشتترى تذكرة جديدة.. والتذكرة بائنتين فرك ونصف.. يعنى ما يوازى ثمانية جنيهات بالسعر الرسمى لعملةنا الوطنية..

ولأن المضطرب ركب الصعاب.. فقد استغنيت تماما عن المواصلات العامة وركبت قيقاب باتينا. وهو شبه قيقاب خالتي.. إلا أنه له عجل وفرامل.. والمهم أنه يسير بسرعة مذهلة.. ولا يحتاج الأمر إلى تريب ولا يحزنون.. تحرك سائقك يمينا وشمالا.. فينطلق القيقاب وحده.. وهوارخص من المواصلات طبعاً.. وأوفر من البنزين.. ثم إنها رياضة جميلة.. يمارسها الجميع.. لا فارق بين كبير وصغير.. غنى وفقير.. وواحد أفندى محترم بلبس بيلة وكرافته ويضع القيقاب فى قدميه فى طريقة للشغل.. وهناك مطاعم وكافينوهات واسعة.. تدخلها بالقيقاب.. والجرسونات فيها يلبسون القيقاب.. ويخدمون الزبائن.. ويتجاولون بين الموائد.. ويحملون المشارب دون أن تهتز أيديهم.. ويتحركون بسرعة مناسبة.. وقد فرحت بالقيقاب جدا.. واعتقت شعار المرحلة.. القيقاب هو الحل !!

وتجولت بمزاج فى شوارع جنيف.. وتمنيت لو أن السادة المخترعين.. قد طوروا الصنعة.. ليخترعوا قيقابا مزدوجا.. يسمح لي بأن أخذ بتنا حلوة ورائى.. ليس من باب التوفير.. وقسمة المصاريف على اثنين.. ولكن من باب الوجاهة والمتعة المضاعفة.. وتمنيت أيضا لو استطاعوا اختراع قيقاب مخصوص.. يصلح لزحام مدن العالم الثالث.. ولواجهة الحفر اللطيفة فى شوارع القاهرة.. لأن شوارع جنيف مصفمة بطريقة تسمح برياسة الباتينا. وتشجعها.. ولا يعنى هذا أنهم لا يعرفون الحفر.. لكنهم ناس راقية والعياذ بالله.. يتعاملون فى الترو واللحظة مع الحفر والتتوات.. وقد وقفت ذات ليلة أنترج على عملية جفر ثم

اعادة رصف أحد الشوارع.. بواسطة خمسة عمال فقط لاغير. أحدهم يحدد بطباشير
ومسطرة والله مسطرة.. مكان الحفر بالضبط.. والآخر بماكينه صغيرة يكشط حواف
الحفرة المقترحة مكان الطباشير.. وبماكينه أخرى يحفر الثالث المساحة المشقوقة والمحددة
بغاية. ويعد أن قاموا بالاصلاحات المطلوبة. بدأت عملية الرصف بالدقة نفسها.. عملية
سريعة استغرقت ساعتين.. وقد شعرت بالغيرة والحسد وحضرة العامل كما الطبيب
الجراح. يشق بطن الشارع.. ثم يعيده لأصله من جديد.. لا زيلة.. ولا أكوام تراب. ولا
أحجار متخلقة تسد الطريق.. وقد شعرت بالغبط.. لأن العامل هناك يتعامل مع المسألة بدقة
وحساب وعناية وتأن.. وكأنه يرصف شقيقته الخاصة.. ولا أقول أن السويسرى أفضل من
المصرى.. لأن المصرى فى الماضى كان يتعامل بنفس دقة السويسرى الآن.. فما الذى
حدث؟ وهل أصابنا للترهل والهوجة مع الستين مليوناً..!! مع أننا نملك نفس المعدات. أم
أنه غياب الاحساس بالمسئولية والرقابة. أم هى قلة الذوق والاستسهال واللككة والفبركة.
ووجدتني أهتف وحضرة العامل الجراح.. يفصل مكان العملية الجراحية بالماء والصابون..
ليعود الشارع كما كان بالضبط.. ووجدتني أهتف كما الزعيم مصطفى كامل.. لولم أكن
مصرياً.. ولم أكمل..!!

اللهم أننى استمتعت بجولاتى الحرة فى شوارع جنيف.. وشعرت اننى لا ألبس القيقاب..
بل أطيّر بجناحين وأتجول بين السيارات بخفة عصفور.. وفكرت فى استغلال المسألة.. فى
أن أسرح بكلينكس فى اشارات المرور عسى أن أضاعف دخلى.. لولا أنهم لا يعرفون هناك
تلك الأساليب للمريحة والمبتكرة.. فى التجارة والاستزاق.



قررت مادامت المسألة سهلة هكذا.. والمواصلات مجانية.. أن أخطف رجلنى لحديقة
الباستيون.. حيث أصدقائى القدامى.. يلعبون الشطرنج على الرافف فى الهواء الطلق.
وهناك وجدت صديقى روبرت قد هجر الشطرنج.. وجلس يضرب أخماساً فى أسداس.
ويلعن حرب البوسنة الدموية.. التى ضيعت عليه حلم حياته بأن يصبح زعيماً سياسياً من
النوع الثقيل. عندما يطالب باستقلال جنيف عن سويسرا الأم. مؤكداً أن التجربة لو كانت
قد نجحت فى الاتحاد اليوغسلافى.. لاطالب هو أيضاً بضرورة استقلال جنيف عن الاتحاد
السويسرى. المكون من أربعة شعوب.. هم الألمان والitalians والفرنسيون وسكان الجبال
الرومانش..

قال لى صديقى: إن سويسرا صارت تخضع كثير النفوذ القسم الألمانى..والذى يمثل سكانه ٦٥٪ من مجموع سكان سويسرا..وفى كل استفتاء يلعب الألمان الدور الحقيقى فى تحديد المسار..مما أصاب باقى المقاطعات بالزهق..فتوقفوا عن المشاركة فى الاستفتاءات.. فلم يعد يشارك فيها سوى ٢٠٪ من مجموع السكان..

وعلى سبيل المثال.. عندما طرحت فكرة انضمام سويسرا إلى الاتحاد الأوروبى..تحمس جدا السويسريون الفرنسيون..فوافقوا بالإجماع..على أساس أن الوحدة قوة وتربط.. لكن السويسريون الألمان..رفضوا بوضوح..فضاع حلم سويسرا فى الانضمام لأوروبا الموحدة.

وفى العام الماضى..كان هناك استفتاء لتغيير القوانين الاقتصادية..بما يسمح بتشجيع الاستثمارات الأجنبية..وفرّح الفرنسيون وهلّوا..لكن المقاطعات الألمانية رفضت بشدة.. فسقط الاستفتاء..وفى هذا العام تحمست المقاطعات الفرنسية للاستفتاء حول خروج المرأة للمعاش فى سن الثانية والستين..بدلا من سن الرابعة والستين..لكن الألمان هاجوا وماجوا..وهددوا بأن خروج المرأة للمعاش المبكر..يعنى حرمانها من المعاش الكامل..أسوة بالرجل..

قال لى صديقى العاطل عن العمل وقد ركب العصبى: إن الألمان يستأثرون بكل شىء.. وأقاليمهم أكثر رفاهية من باقى الأقاليم..ولا يعرفون البطالة..فى حين أن طوابير العاطلين بالكوم فى المقاطعات الفرنسية والإيطالية..وإن الحل هو فى استقلال جنيف..لتصبح إمارة شبيهة بامارة موناكو..أولوكسمبرج..وأكد لى أنه كان على وشك التقدم بالفكرة..أطرحها للاستفتاء الشعبى العام..لولا حرب البوسنة..التي خيم شبحها على أنصار التحرر والاستقلال..

و..لم أتحمس طبعاً لفكرة صديقى المجنون..وخفت من فكرة الانفصال والحرب الأهلية..التي لو حدثت لأقدر الله..لدفن المصريون الفاتورة..على اعتبار أننا أصحاب سوابق..وعندما انفلتت حرب العراق الكويت..سقط للمصريون أسرى..وعندما اختلفت اليمن مع اليمن..ضربوا المصريين هناك..وعندما تطرف السودان..دفن المصري استاذ الجامعة ومهندس الرى الثمن..والأمثلة كثيرة

وعلمت من جديد أن شعبي فى القيقاب للتحرك..مبتعداً عن الغمام السياسية..وأفكار صاحبي المجنون..ورحت أحرك ساقى يميناً وشمالاً بقوة..رغبة فى الانطلاق والطيران..

ومن الواضح أن رغبتي تحققت بسرعة.. لأنني طرقت فعلا.. وسقطت من الدور العاشر في وسط الطريق..!!

لولا الملامة.. لبكيت من خيبتى الثقيلة.. وقد تبعثرت في وسط الطريق.. لكننى الممت نفسي بسرعة.. وكنت أشتد الرياح والجاىء.. فلم يكلف واحد خاطره.. ليساعدنى على الوقوف.. أويشد من أزرى.. ووقفت على قدمى من جديد.. وقد تأكدت أننى لم ألق عنقى.. أو أكسر ساقى.. وفرحت بشبابى.. وبدأت فى التحرك مرة أخرى.. بأسلوب الخطوة خطوة.. لكن كفى ونراعى أعلتنا العصيان المدنى.. وبعد أقل من ساعة.. تورمت كفى وقد انفجر شلال الألم!!

فكرت فى الذهاب لأقرب مستشفى.. لكن الكمبيوتر تحرك فى عطفى بسرعة.. فالذهاب إلى المستشفيات هنا مشروط بأن تكون مشتركاً فى نظام التأمين الصحى.. وهو نظام حقيقى لا شبهة فيه للفهولة.. فتتولى شركة التأمين تغطية جميع تكاليف العلاج.. وأجرة التاكسى أيضاً والمشكلة أننى ضيف عابر.. بما يعنى أن مينا أنيتى المتواضعة جداً سوف تتحمل تكاليف العلاج.. وهى تكاليف لا يقدر عليها سائح مكسور الذراع والخاطر مثلى.. عكس الحال فى البلاد الإنجليزية.. حيث تطبق بريطانيا الراسمالية.. أسلوب العلاج الاشتراكى المجانى.. وسواء كنت انجليزياً مقيماً.. أو سائحاً عابراً.. فانت تتمتع بالعلاج المجانى.. وهو مكسب حقيقى أضافته حكومات العمال الإنجليزية.. ولم تستطع حكومات المحافظين اليمينية القضاء عليه.

وقررت تجاهل أزمة ذراعى المكسورة.. على أساس أن الألم مسألة نسبية.. يمكن تحملها.. ومن المؤكد أن حنته سوف تخف بمرور الوقت.. لكن المصيبة أن كفى صارت بحجم البطيخة الشليان.. وقد تضاعف الألم.. وتصور الناس أننى «حايو» مثل فيفيد كوير فيلد.. خصوصاً وقد جلست على قارعة الطريق.. أحسبها بدقة.. فهل أذهب إلى المستشفى وأخصر فلوس الرحلة.. أم أطفش عن المسألة.. وهتفت بلوعة مثل للرحوم هاملت.. أروح.. أو.. لا أروح.. تلك هى المشكلة.

وانفجر الصراع بين العاقل والمجنون داخل نفسى.. وانتصر طبعاً الأخ المجنون.. لأننى ذهبت للمستشفى بدمى..

ذهبت أقدم رجلاً.. وأقنخر الأخرى.. لكن البنت الممرضة التى وقعت فى غرامها من أول حقنة.. والتى تنافس ملكات جمال.. سحبتنى بسرعة إلى غرفة الأشعة.. وحاولت أن أشرح

حالتى . وأن أتناقش معها بموضوعية حول تكاليف العلاج.. وأحوال المولطفين فى حكومة عاطف صدقى.. إلا أنها طيببت خاطرى.. وأخذتني مع صور الأشعة إلى حضرة الطبيب الرقيق المؤدب.. الذى طمأننى بأننى حسن الحظ لأننى لم أكسر ذراعى.. وأن المسألة لا تتعدى خلعا بسيطا فى عظام الكف.. يحتاج لجبيرة لمدة أسبوعين.. ونصحنى بالتوقف فورا عن ممارسة رياضة الباتيناج.. التى لا تجوز لمن هم فى مثل سنى.. وعندما حاولت مناقشته فى قضية الرياضة والسن.. صرفنى برفق.. وطلب منى الحضور فى اليوم التالى.. المتأكد من أن الجبيرة تقوم بدورها

غادرت المستشفى وأنا أضرب كفا ببلاستيك.. لأن كفى الأخرى فى الجبيرة البلاستيك.. وأنا أتعجب من أن سويسرا الرأسمالية لم تطلب منى أن أضع على الترابيزة تكاليف العلاج مقدما.. ولم تطلب منى شراء الحقن والشماش والجبيرة البلاستيك.. وأن أحدا لم يطلب بطاقتي ليتأكد من صحة البيانات.. وأننى أستطيع طبعا وبعد أن تلقيت العلاج أن أهرب بجلدى وقلت فى نفسى: ربما يكون الطبيب قد أخطأ فى الاجراءات . بعدم تقاضى الاتعاب مبكرا.. وربما يرفدونه من المستشفى بسببى..

وفى اليوم التالى.. كشف على الطبيب.. وطمأن على وضع الجبيرة . وطلب منى الذهاب إلى السكرتيرة . التى قدمت الفاتورة.. بعد انتهاء العلاج تماما.. ويبلغ ٣٠٠ فرنك بالتمام والكمال.. أو ما يقرب من ألف جنيه مصرى.. وأفهمتني السكرتيرة بإبسامتها الساحرة.. أن التكاليف كان يمكن أن تكون مائتى فرنك فقط.. لكنى حضرت لقسم الحوادث بدون موعد مسبق.. ولهذا أضافوا مائة فرنك على الفاتورة.. صحيح اننى لا يمكن أن أتنبأ بموعد الحادث . لكن النظام نظام.. وابتسمت بريقة.. و . دفعت الفلوس.

غادرت المستشفى أبكى بدموع حقيقية على الفلوس الضائعة.. والعن فكرة قبقاب الباتيناج.. وفى البيت حاصرتني الكوابيس والأحلام المزعجة . وخفت أن يقع لى حادث جديد.. فاضطر للتعامل مرة أخرى.. مع الدكتور أبورجل مسلوخة . أو مع الممرضة التى تشبه زينات صدقى . وأن اضطر إلى بيع هدى.. مع أنها رخيصة جدا .

و.. فى اليوم التالى.. حزمت أمتعتى.. وغادرت إلى لندن.. حيث العلاج مجانى . وحيث معنا محمود السعدنى..

مع أنه لا يأكل اللحم..!!



يا عزيز يا عزيز كبة قائد الانجليز



وحد القطار ما بين دول أوروبا.. مع أنها أبعد ما تكون عن شروط الوحدة التي نسمع عنها.. ونحلم بها.. ونغنى لها.. وحدة اللغة والتاريخ والدين والأمال والألام.. دول أوروبا متخاصمة متصارعة في الغالب.. بعضها يتكلم انجليزى.. والبعض يرطن فرنساوى.. وهناك الألمانى والطليانى والأسباني والبرتغالى.. وهناك دول فقيرة تستحق اعانة من الأوقاف.. وهناك الامبراطوريات التي لا تغيب عنها الشمس.. وإن غابت بفعل التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية.. وحركات تحرير الشعوب.

دول أوروبا خاضت الحروب ضد بعضها البعض.. وهناك من احتل أراضى جيرانه.. واستباح وقتل وسجن أهلها.. وهناك من قاد الحرب الشعبية.. ضد الجار المحتل..

بالاختصار المفيد.. وحد القطار ما بين أوروبا المتخاصمة.. التي أدركت في الوقت المناسب لغة المصالح.. واكتشفت قوانين الاقتصاد.. وعرفت أن القطار ليس فقط لتبادل البضائع والأشخاص.. وإنما هو أيضا الوسيلة المثلى.. لتبادل الأفكار وجهات النظر.. ونقل الحضارة.. والقفز إلى المستقبل..

وقطار أوروبا.. ليس هو القطار الذي نعرفه في بلادنا.. ونطلق عليه اسم القطار.. من باب الدلع والتدليل.. تماما كما تطلق خالتي أم زنجر على ابنها اسم الباشا والدكتور.. على سبيل التفاخر والتمنى وكيد العزال.. قطار أوروبا.. يتنافس الآن الطائرة البوينج.. ليس فقط في الأسعار.. وإنما في السرعة أيضا.. ويقطع مسافة ٢٠٠ كيلو متر في ساعة واحدة.. يعني يقطع المسافة من جنيف إلى باريس في ثلاث ساعات ونصف الساعة.. ومثلها من باريس إلى لندن..

والقطار هناك.. مثل كل شيء يجرى بالكمبيوتر.. ومن خلال غرفة مراقبة
أرضية.. تشبه غرفة المراقبة الجوية فى الطائرات.. يحتاج لقضبان خاصة..
لأنه يكاد يطير على الأرض.. وهو ثورة حقيقية فى عالم النقل والمواصلات..
بدأت فرنسا استخدامه عام ١٩٨١.. ثم امتد النشاط إلى جنيف ولوزان..
ثم إلى لندن.. وإلى بروكسل.. ثم راحت باقى دول أوروبا فى استخدامه
ليكون شبكة حقيقية تربط بلدان أوروبا.. ببعضها البعض..
القطار العظيم السرعة.. وهذا اسمه بالمناسبة.. أكثر أمانا من الطائرة..
لأنه مصمم بطريقة مخصصة.. لا يمكن معها السقوط.. يعمل بالكهرباء..
ولا يلوث البيئة.. وهو أكثر راحة. والمهم أنه يستوعب ٧٧٠ راكبا.. أى أكثر
من ضعف ركاب الطائرة العادية.. ويتوقعون أن يحل محل القطار التقليدى
فى المستقبل.. لأنه أسرع قطار فى العالم.. وهناك ٧٩٠ ألف مسافر
يستخدمونه كل طلعة شمس.. يعنى ٢٨٧ مليون راكب فى السنة.. وينقل
فى العام الواحد بضائع وزنها ١٣٧ مليون طن.. ما بين بلدان أوروبا التى
تستخدمه..

ومن أجل خاطر عيون القطار السريع.. تخلت بريطانيا عن عزلتها
التقليدية.. وتنازلت عن عنجهيتها.. وتعاليتها على باقى دول أوروبا..
كجزيرة فى وسط البحر.. تربطها بأوروبا العبارات الضخمة.. تعبر بحر
المانش.. الآن ولأول مرة فى التاريخ.. ترتبط بريطانيا بأوروبا.. عبر نفق
ضخم تحت الماء.. يقطعه القطار فى حوالى نصف ساعة..

صحيح أن نوايا بريطانيا ليست لوجه الله.. وليست لوجه القطار.. لكنها
فعلت ذلك.. لتكون فى قلب أوروبا الموحدة.. التى من المتوقع أن تكون القوة
الثالثة.. فى مواجهة الغول الأمريكى.. والبعبع اليابانى.. المتنافسين
الرئيسيين فى القرن القادم..

وأوروبا التى اخترعت القطار السريع.. لا تعاني من الشيزوفرينيا.. لأنها
اخترعت القطار.. و اخترعت معه القوانين البسيطة.. التى تسهل من
مهمته.. فالغت موظفى الجمارك.. لأنه لا لزوم لهم.. وفى أوروبا الموحدة..
حركة البضائع تتم فى سهولة ويسر.. والحركة بركة كما نقول نحن فى

شرقنا الأوسط الفارق في النوم.. واجراءات دخول مواطن اوروبى من دولة
لاخرى.. صارت أسهل من شكة الدبوس.. والفيزا الأوروبية صارت
موحدة.. ومادمت تحمل تأشيرة احدى الدول.. من حقا الانتقال إلى معظم
الدول الأخرى.. بنفس التأشيرة.. وفي القطار السريع.. لا تدرك أنك انتقلت
من دولة لأخرى.. إلا بالصدفة.. ونتيجة لتغير اللغة التي تكتب بها
اللافتات.. وأسماء الشركات والمحلات على الطريق..

لا يعرفون الآن في أوروبا.. حكاية نقاط التفتيش.. والمدافع الرشاشة في
أيدي الجنود.. والصواجز الضخمة والأسلاك الشائكة.. بين حدود دولة
وأخرى.. ومن الواضح أنها اختراعات منقرضة.. تخلت عنها دول أوروبا..
ولا نراها الآن سوى في الأفلام القديمة.. أو في بلادنا المستقلة.. وقد
عابنت المسألة شخصيا.. وتعمدت الدخول والخروج.. من جنيف إلى فرنسا
وبالعكس.. عشر مرات في اليوم الواحد.. عسى أن يضبطني جندي واحد
من حرس الحدود.. دون جدوى..

ومع أننا - أولاد العرب - من هواة الاقتباس والنقل عن أوروبا الحديثة..
من الأبرة للصاروخ.. إلا أننا في مسألة الحدود - والتراب الوطنى بالذات -
لا نفرط ولا نساوم.. وأراهن لو استطاع مواطن عربى.. أن يمر من نقطة
حدودية واحدة.. في أى دولة عربية.. دون أن يخلع ملابسه كاملة.. للتفتيش
طبعاً.. وليس لأسباب أخرى.. بل إن المواطن المصرى.. لا يستطيع أن يعبر
مثلاً.. من المدينة الحرة «بورسعيد» أو إلى داخلها.. دون أن يتوقف عدة
مرات للتفتيش.. والمسؤال عن الصحة والأحوال.. وأسباب الزيارة الكريمة..
ومع أننا شعب واحد.. في وطن واحد.. لا أعرف لماذا لا نستخدم القطار
السريع.. ليربط بين بلادنا.. كوسيلة سهلة للترابط والمعرفة.. مع أننا في
عهد المحتل الفاشم كنا نستخدم هذا القطار.. الذى كان يمتد من حلب
السورية إلى أوروبا.. والغريب أننا نملك الفلوس.. ونشتري جميع أنواع
السيارات.. المعروفة وغير المعروفة.. ونقتنى الطائرات.. العامة والخاصة..
لكن في مسألة القطار بالذات.. هناك حالة من الخصام.. لا أعرف لها
سبباً..

بل إننا فى مصر المحروسة.. التى ترفع شعار السياحة هى المستقبل..
ولدينا وزارة كاملة للسياسة.. لها وزير ووكلاء وزارة.. ومديرو عموم..
وهيئة تشييط.. ومجلس أعلى.. وميزانية وسيارات وسفريات.. ومع هذا
نضرب السائح.. ونصر على استخدام القطار الحجرى.. نسبة إلى العصر
الحجرى.. الذى يقطع المسافة من القاهرة إلى الأقصر فى ١٦ ساعة..
وأحيانا فى عشرين ساعة.. بالتقسيت غير المريح.. مع أننا وبالقطار
السريع.. نقطع نفس المسافة فى ثلاث ساعات فقط.. لكنها العادات
والتقاليد.. والبعد عن الأفكار المستوردة.

ولو كنا جادين حقا.. ونرغب فى تحقيق الوحدة العربية واقعيًا.. وليس
بالكلام والشعارات والأغاني الحماسية.. لاستوردنا هذا القطار فورًا..
لنربط المحيط بالخليج.. بحق وحقيق.. لنخلق حالة من التعارف والتآلف
العربى.. نقدّمها بشدة.. وتصور أن المسافة من المغرب إلى الاسكندرية
يقطعها القطار السريع.. فى تسع ساعات فقط لاغير..

وأقر واعترف.. اننى رغم دعوتى لاستخدام القطار السريع.. إلا أننى
شخصيا متحمس بالكلام النظرى فقط.. ولا أستطيع التعامل بواقعية مع
الفكرة.. وتخيل حضرتك.. أنك لو ركبنا هذا القطار.. فى سياحة عربية
داخلية.. كما يفعلون فى أوروبا.. فسوف تعرض حياتك لخطر عظيم..
وسوف تصادر فلوسك وأوراقك.. وسوف يتحفظون على شئط هدمك..
وكتيك ونظارة القراءة.. وسوف تزور جميع السجون العربية بلا استثناء..
فى سياحة من النوع المخصوص.. مرة بتهمة الشيوعية.. ومرة بتهمة
الناصرية.. ومرة بتهمة الرجعية والعمالة للأمريكان.. وتارة لأنك جاسوس
متنكر.. وتارة لأن شكلك يشبه واحد سوفيتى.. وسوف تعرض على جميع
نيابات أمن الدولة.. وتهريب العملة والمخدرات.. ومباحث التزييف والآداب..
والتموين أيضا.

وفى النهاية سوف يودعون حضرتك مستشفى الأمراض العقلية..
والسبب أنك مجنون رسمى.. وضعت نفسك موضع الشبهات.. بركوبك هذا
القطار العجيب..

أنا شخصيا.. تعرضت لتجربة مماثلة.. وقد ذهبت إلى تونس ذات يوم من خمسة عشر عاما.. وفي مطار تونس احتجزني حضرة الموظف «الرائق» ثماني ساعات كاملة.. والسبب أنني ذهبت لتونس من لندن.. وليس من القاهرة.. وقتشوا حقائبي خمسين مرة.. وقتشوني ذاتيا.. بحثا عن قنابل أو منشورات.. واتهمني حضرة الموظف بوضوح.. أنني حضرت لتخريب نظام بورقيبة.. مع أنني ذهبت مع فوج سياحي إنجليزي.. لم يتعرض واحد منهم لمثل ما تعرضت له من مضايقة.. ولم يفرجوا عني.. إلا بعد أن تعهدت بتسجيل اسمي في قسم الشرطة يوميا.. كأصحاب السواقي.. ليتأكدوا من حسن سيرى وسلوكي للؤدب.. تجاه نظام الزعيم بورقيبة..!!

وإذا كان القطار السريع.. هو اختراع أوروبي.. فإن مترو الأنفاق.. السريع أيضا.. هو اختراع إنجليزي.. ومن حق بريطانيا أن تفاخر به الأمم.. يوم الحساب.. ومترو لندن.. هو أحد عجائب الدنيا.. لو جاز التعبير.. فهو الأضخم والأكبر والأقدم.. وقد نزل الخدمة منذ مائة وعشرين عاما.. يعني كانت المواصلات ساعتها رائعة والحياة سهلة.. ولم يعرفوا وقتها اختراع الزحام.. ومع هذا فكروا وخططوا ونفذوا مترو لندن.. وتنبأوا بأهميته في المستقبل.. ربما لأن الفلوس وقتها كانت بغير حساب.. وفي مترو لندن.. أتصرف براحتي.. ولا سبيل للحرص.. وأشعر أنني صاحب بيت.. لأن هذا البناء الضخم.. تم على حسابي الخاص.. ومن نهب كنوز وخيرات مصر.. وقطن مصر وقناة السويس مصر.. ولهذا فإنني شريك بالنصف في هذا الانجاز المعقد.. والذي يفرح القلب.. ويضم ٢٧٠ محطة بطول العاصمة وعرضها.. وفي بعض المحطات.. يمتد البناء.. ليصبح عمارة كاملة من خمسة طوابق تحت الأرض.. ولكي تركب المترو.. عليك أولا بمراجعة دروس الجغرافيا والرسم البياني.. لكي تذاكر خريطة المترو.. وحتى تحدد طريقك بدقة.. بين ٢٣ خطا متقاطعا ومتداخلا.. تشمل جميع أحياء العاصمة البريطانية.. والنزول طبعاً للمترو.. والصعود منه.. عن طريق السلالم المتحركة

اتوماتيكيا.. والتي لا تعطل أبدا.. بفضل الصيانة المستمرة.. لأن المهم هو راحة الزبون.. والاعلانات على جانبي السلم.. تطالعها في صعودك وهبوطك.. أشهرها اعلانات البريد والتليفون.. لتشجيع المواطن على استخدام تلك الخدمات الممتازة.. التابعة لشركات تجارية.. تحقق أرباحا ضخمة.. والمهم أنها منضبطة ويا امتياز.. تماما كالساعة السويسرية..

وياميت خسارة.. على مترو الأنفاق العظيم.. وقد تدهورت به الأحوال.. فصار تجمعاً حقيقياً.. للاخوة من قبيلة عشانا عليك يارب.. والخيبة القوية.. أنهم متسولون ماركة محسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة.. يعنى متسولين بشكل واضح صريح.. لأن المتسول فى باقى دول أوروبا.. يتسول بالموسيقى والرسم والرقص.. لكن متسولى لندن لا يتجمعون.. ويفتقدون للحس الفنى.. والواحدة منهم تضع طفلاً على كتفها.. أو تشحب رجلاً عجوزاً.. وتعد يدها.. لله يا محسنين.. فشر شحاتين السيدة والحسين.. وإذا كان يجوز أن نرى أكوام الشحاتين فى السيدة.. بحكم عوامل الفقر وقلة الحيلة.. فإنه لايجوز أن نراهم فى مترو لندن.. عاصمة الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس..

والغريب أنهم ليسوا من المحتاجين.. لكنهم نصابون وممثلون من الدرجة العاشرة.. والواحدة منهم تربط رأسها بمنديل.. وتدعى أنها من لاجئات البوسنة.. مستغلين حالة التعاطف الشعبى من مأساة البوسنة وأمالى البوسنة من المسلمين.. وهى فى حقيقتها انجليزية من النوع الفاجر.. تتكلم «كوكنى» اللغة الدارجة فى شوارع لندن.. وفى يدها سيجارة ماريجوانا.. وتشرب البيرة الساقعة.. وولحد آخر يئف أن يقول: لله يامسحنيين.. فيضع أمامه يافطة مكتوب عليها حكمة اليوم: التسول خير من السرقة.. مع أنه طول وعرض.. لكنه الاستعياط والوجه المكشوف.. خصوصاً أنهم يتكلمون فى المحطات التى يكثر فيها السياح العرب.. مثل ماريل أرش.. واكسفورد ستريت.. وكوايتزاوى.. على أساس أن العربى طيب وابن حلال وعلى نيائه.. وخيره لغيره.. ويعطف على الفقراء والشحاتين.. خصوصاً من الصنف الانجليزى مكسور الجناح..

الغريب فى الأمر.. أن عمليات التسول تتم فى وضخ النهار.. وعينى عينك.. ورجل البوايس الانجليزى.. بالسلطانية السوداء فوق رأسه.. والمشهور بالحسم والحزم.. واقف يتفرج.. وكأنه يقتسم معهم الحصيلة آخر النهار.. أو كأنهم يتسولون بتصريح رسمى.. وبإرخصة من حكومة المحافظين.. ووجدتني أغنى وطوايير الشحاتين تحاصرني من اليمين والشمال.. تماما كما غنى المرحوم جدى: ياعزيز ياعزيز.. كبة تأخذ الانجليز.

وفى الهاید بارك.. وقد جلست ذات صباح أخطط للبرنامج اليومى.. إذا برجل مهيب يتقدم نحوى وبحسم.. وهو ليس بذلة آخر موضة.. من صوف انجليزى أصلى.. وقد خفت وحسبته صاحب الحديقة.. أو عضوا فى مجلس الشورى هناك.. فإذا به ومناخيره فى السماء.. يطلب منى جنهين استرلينيين.. لكى يقرر حضرته.. وحسبته فوجدته يطلب ١١ جنيهها مصريا.. أكسبها أنا بطلوع الروح.. ومع أنتى شعرت بالزهر والفرح.. لأن الانجليزى ابن المحتل القديم.. قد اختارنى أنا بالذات لأقرضه المبلغ المطلوب.. إلا أنتى رفضت وبوضوح.. بل ونهرته بشدة.. لأن الأقربين أولى بالمعروف.. ولا تجوز الحسنة لمن هو يعيش فى رفاهية الانجليز.. حتى لو تدهورت بهم الأحوال.. وانخفضت مستويات معيشتهم.. ثم إنه لم يطلب بأدب واستجداء..

ويظل الانجليزى.. ولو كان عاطلا عن العمل.. إلا أنه يتقاضى اعانة بطالة.. لا تقل عن خمسين جنيهها استرلينيا فى الاسبوع.. يعنى ألف جنيهه مصرى فى الشهر.. منتهى الاستهبال وقلة الذوق والطفاسة..

وقد تصورت والحكاية هكذا.. أننى ربما أصادف بائع عرقسوس.. أو رجلا يسرح بأمشاط وفلايات.. أو يأكل الأمواس ويقول: خمسة يكتفونى.. ومع هذا فقد صابفت هذا الرجل.. ليس فى مترو الانفاق.. ولكن فى ميدان كوفنت جارين.. حى الاوبرا والمسرح والفنانين.. كدليل حى.. على تدهور الأحوال.. فى الامبراطورية التى حكمت العالم بالكرايا والحديد والنار..

ومن الواضح.. أن التدهور لم يقتصر على مسألة التسول.. وشغل الحواة.. ولكن هناك نشالين أيضا.. وفي المترو وفي جميع المحلات الكبيرة أو الصغيرة.. لاقتات واضحة تحذر من النشالين..

أنا شخصا لم أتعرض لأية محاولات للنشل.. ربما لأن المظهر لا يوحي بالثقة للاخوة النشالين.. لكنني صادفت حادث نشل في اتوبيس لندين التقليدي.. أبو نورين.. عندما صرخت سيدة فجأة.. تقف بالقرب من الباب تستعد للنزول.. وقالت لخواجة انجليزى.. بوجه أحمر وتبدو عليه دلائل العز والنعمة.. وهو يقف بالقرب منها: شيل إيدك من الشنطة.. وبعد أن شال يده.. قالت له باحتقار: أنت حرامى.. ثم غادرت الاتوبيس..

الغريب.. أن أحدا لم يتحرك.. ولم يتنحج ويهز طوله.. ويضرب الحرامى قلمين.. وقد وقفت استعدادا للتحرك والمشاركة في الموقعة.. لكنني انكسفت عندما لم يتحرك أحد.. وخفت أن يحسبني الركاب شريكا لحضرة الحرامى.. فجلست بسرعة.. ولو كانت الحادثة قد وقعت في اتوبيس بقاهرة المعز.. لقام جميع الركاب.. بما فيهم السائق والكمسارى.. ليضربوا الحرامى.. بالعدل والقسطاس.. ولتعرض الحرامى شخصا.. لسرقة هدمه وفلوسه.. قبل أن يجرجروه في زفة بجلاجل إلى قسم الشرطة.. على أنغام الصفعات والركلات.. وأدركت ساعتها وبالصوت والصورة.. معنى تشبيه الانجليزى بأنه بارد.. وبامتياز.. خصوصا وقد وجدت أحد رجال الشرطة الذين كان يقف على شنبتهم الصقر في الماضى.. وقد أدار وجهه بعيدا.. وكان الأمر لا يعنيه.. وقد حلق شنبه.. فطار الصقر.. وضاعت الهيبة..

عليه العوض.. ومنه العوض.. على الاميراطورية التى غابت عنها الشمس.. وانحسرت.. فراح في سبات عميق.



لأجركم ولأبركم .. ولا

حاجة أبدا التمسك يا جماعة



يا عيني على بنت الأصول.. سليله الحسب والنسب.. حضرة جلالة ملكة بريطانيا العظمى.. والدماء الزرقاء تجرى في العروق.. أبا عن سابع جد.. وقد تدهورت بها الأحوال.. واشتدت الأزمة.. فاضطرت إلى تلجير القصر الملكي لمن يدفع الثمن.. ولأول مرة في التاريخ.. يصبح دخول قصر باكينجهام.. المقرر الرسمي للملكة بريطانيا.. بتذاكر وفلوس.. لكل من هب ودب.. تماما مثل دخول السينما والسيرك واللونا بارك.. ولولا الملازمة.. لقامت جلالة الملكة بتأجير حجرات القصر مفروشة بالنفر.. لفقراء السائحين من أمثال حضرتنا.. مثلما تفعل السيدة خالتي في بيتها المتواضع في موسم الصيف.

ومع أن جلالة الملكة اليزابيث الثانية.. هي أغنى امرأة في العالم.. بشهادة البنوك وسماسرة البورصة.. وثروتها كام مليار استرليني.. وأضرب في خمسة ونصف.. لتترجم الثروة إلى العملة المصرية.. وهناك كام مليون استرليني «فكة» كمرتب سنوي تتقاضاه من الحكومة.. بالإضافة إلى العلاوات ومنح الأعياد.. نظير القيام بأعباء وظيفتها كملكة متوجة على البلاد.. إلا أن البحر يحب الزوادة..

أقصد أن جلالة الملكة.. ليست في حاجة عاجلة لتلجير القصر.. لكنها فلسفة العصر.. وشغل البيزنس.. وقد أصبح كل شيء للبيع والإيجار.. حتى قصر باكينجهام.. رمز الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس.. كدليل على تغيير الأوضاع.. أوضاع الحكام والمحكومين.. وتبدل المفاهيم.. وضياح الهيبة..

وفي الماضي القريب.. ومنذ أقل من ٢٠٠ سنة.. وفي فرنسا المجاورة.. كانت إحدى علامات السعد والشرف والفخار.. أن يسمح لك بدخول

القصر الملكي.. وأن تكون شاهد عيان للحظة ذهاب جلالة الملك لويس الرابع عشر إلى السرير.. أو أن تكون شاهدا للحظة صحيان جلالتك من النوم.. وكان من يحضر هذه المناسبات السعيدة.. يعد من المحظوظين.. ومن ذوى الخطوة.. ومن المقربين جدا.. الذين لهم كلمة فى البلاط الملكى.. وفى دوائر الحكم.. ولهذا كان جلالة الملك يختار بعناية من بين النبلاء والأمراء.. من يحظى بهذا الشرف الرفيع.. ليعسكر فى غرفة نوم جلالتك.. لحضور الاحتفالات المهيبة لذهابه إلى السرير.. ويختار نبلاء آخرين لحضور الاحتفال التاريخى.. للقيام من السرير فى الصباح.

صحيح أن جلالتك ملك «عيل» تولى الحكم فى سن الخامسة.. لكن هذه العادة.. عادة الاحتفالات المهيبة قبل وبعد السرير.. امتدت لأكثر من ستين سنة قضاها فى الحكم.. وكان هناك من النبلاء والأمراء العاقلين البالغين.. من يتمسك طوال حياته لأنه لم يحظ بشرف رؤية جلالة الملك بالبيجاما فى السرير.. وهناك من ينتحر حزنا وقرقا من الدنيا الفانية.. التى حرمته من نعمة أن يقول تصبح على خير يامولانا..

ويفسرون فى بريطانيا.. أن جلالة الملكة.. اضطرت إلى تلجير القصر.. لمواجهة غلاء المعيشة والأزمة الاقتصادية.. ولأن حديقة القصر الواسعة.. تحتاج لعناية من النوع المخصوص.. وتحتاج لتكاليف وميزانيات وأنفاق للتشغيل.. ولهذا أصبح من حقك وفلوسك.. دخول قصر باكينجهام شخصيا.. وأن تتجول ليس فقط فى الحديقة.. لمشاهدة تغيير الحرس الملكى.. وهى فرجة حقيقية بالمناسبة.. لكنك بالمرة.. وفوق البيعة.. تتجول فى قاعات القصر.. وفى حجراته وممراته.. لتشهد بنفسك زوال العز القديم.. وتبصم بالعشرة.. على أنك تعرفت بشكل واقعى على مغزى الحكمة القديمة.. عزيز قوم ذل.. بشروط أن تكون الزيارة من ٧ أغسطس إلى ١٢ أكتوبر.. أثناء غياب جلالة الملكة.. فى رحلتها السنوية إلى قصرها الصيفى.. بعيدا عن قصر باكينجهام.. وخلال تلك الفترة.. فإن كل شىء مفتوح ومباح فى القصر الملكى للسياح والزوار بتذكر.. ماعدا طبعاً غرفة نوم جلالتك.. والحمام الملكى.. والتواليت المخصوص.. وربما ينظمون فى

الخطه الخمسية القادمة.. رحلات اضافية إلى التواليت الملكى.. للسياح
المرتوقين..

سلوك حضرة جلالة الملكة.. يثبت صدق نظرية خالتي رتيبة.. التى تؤجر
شقتها مفروشة فى الصيف.. والتى ترفع شعار أكل العيش يحب الخفية..
ويدلا من أن تمد يدها لفلان أو علان.. تقوم بتأجير قصرها بالاسترلينى..
ويعناسبة الاسترلينى.. فإن صورة الأديب الانجليزى الأشهر تشارلز
ديكنز.. تزين العملة الانجليزية.. جنبا الى جنب صورة الملكة اليزابيث..
تعبيرا عن تقدير الدولة والمجتمع والملكة شخصا.. للأديب الكبير الذى
أثرى الوجدان.. وعبر عن موم المواطن الانجليزى الغلبان والمطحون.. ومن
الواضح انه اتجاه أوروبى.. لتكريم العلماء والفنانين وكبار الأدياء.. وفى
فرنسا يضعون صورة ميلينا ميرى كورى على الفرنك الفرنسى.. وفى
سويسرا يضعون على الفرنك السويسرى صورة لويس قافر.. المهندس
المشهور.. وأول من حفر نفقا ضخما فى جبال الألب.. من الأراضى
السويسرية إلى الأراضى الإيطالية..

وأخشى أن أطالب بوضع صورة الأدياء والفلاسفة والمفكرين المصريين
على الجنيه المصرى.. حتى لا يقوم السادة بوضع صورة عاطف صدقى
وفتحى سرور.. بدلا من نجيب محفوظ وحسن فتحي وطه حسين ويحيى
حقى ويوسف ادريس.. ولنا فى ذلك سوابق.. وقد فاز الثنائى صلقى-
سرور.. بجائزة الدولة التقديرية.. فى الفنون والآداب.. فى سابقة لم تتكرر
من قبل.

وإذا كانت الحاجة اليزابيث.. تفتح قصرها للسياح.. فإن بريطانيا كلها
تفتح ذراعيها للسائحين من جميع أنحاء الدنيا.. ومع أن لندن العاصمة..
تضم ١٣ مليون مواطن.. فإن شوارعها تستوعب ٢٦ مليوناً.. على اعتبار
أنها تستقبل شهريا وخلال موسم الصيف ١٣ مليون سائح.. يعنى من كل
اثنين يعيشان فى الطريق العام.. ويركبان المواصلات.. هناك سائح واحد
على الأقل.. ولهذا يقولون إن لندن مدينة «كوزمو بوليتان».. يعنى مدينة
عالمية.. تتكلم أية لغة من لغات العالم.. ومن المؤكد أنك سوف تجد من يفهم

لغتك ويستجيب للحوار..

وطبقا لنظرية العرض والطلب.. أصبح الحجز فى الفنادق بالعافية.. وركوب الطائرات بالواسطة.. وأكوام السائحين بالكوم تغزو المدينة.. وقد لعبت الشمس الانجليزية دورها فى جذب السائحين.. ومن الواضح أنها اندمجت حبتين.. لأنها نافست شمس يوليو فى القاهرة.. مع أنها فى العادة تعاني الشيزوفرينيا.. يعنى تظهر أحيانا.. وتختفى فى معظم الوقت.. فلم تجد جماهير السائحين حلا.. سوى الهرب إلى حمامات السباحة المنتشرة جدا.. أو إلى الحدائق العامة.. وأشهرها طبعا حديقة الهاید بارك.. ومساحتها بالنسبة ٦٢٠ فدانا بالتعام والكمال.. يعنى أكثر من عشرة أضعاف مساحة حديقة الحيوان فى القاهرة..

ومن حسن الحظ أنه لا يوجد عندهم مسئول عاقل.. يقترح إزالة الهایدبارك.. لإقامة عمارات سكنية.. لحل أزمة الاسكان التى تعاني منها العاصمة الانجليزية.. كما حدث ذات مرة عندنا.. عندما أقترح مسئول عبقري إزالة حديقة الحيوان.. ونقلها إلى الصحراء لاستغلال مساحتها وموقعها المتميز.. فى بناء عمارات الاسكان الفلخر.. خصوصا أن المتر الآن بالدولار.. وعلى الموضة..

وفى الهاید بارك.. يتجول السائحون وتستلقى السائحات بالشورت الساخن.. والميكروجيب الجرىء.. يكشف عن السيقان المسحوبة بعناية.. وعلى عينك ياتاجر.. وكان هناك اتفاقا بين حزب الجنس اللطيف.. على الرشاقة وقوام غصن البان.. وهو اتفاق سرى وغير مكتوب.. يشبه ذلك الاتفاق بين مذييعات التليفزيون عندنا.. على الالتحاق بحزب أشجار الجميز..

وقد تعرفت فى الهاید بارك على بنت ايرلندية رقيقة.. ولعبت الرومانسية دورها فى هذا التعارف.. الذى تم بأسلوب عصرى.. نظرة.. فابتسامة.. ففاصل ربح ايرلندى.. فعزومة على الغداء بالشىء الفلانى.. وميزة البنت الايرلندية.. أنها بنت بلد جدا.. صعيدية خالص.. مستعدة لكى تبيع هدموها من أجل سياستك.. ويشترط أن تكون حضرتك جدعا

وشهما أيضا.. ولكن لو اكتشفت أن حضرتك ندلا ولا مؤاخذه.. فإنها لن تبكى وتغنى ظلموه.. لكنها سوف تضربك بالمطواة قرن الغزال.. وتفضحك بجلاجل.. وتقتلك لو لزم الأمر..

وقد أحببت صديقتى سوزى الأيرلندية.. منذ غداء العمل الأول.. وقلت فى نفسى أنتى مستعد لكى أهرج حياتى كلها.. وأن أبدأ معها من جديد.. ومن أول السطر.. فالبنت جمال وحياة وخفة دم.. ثم أنها محتشمة متحفظة.. وإذا كان الميكروجيب قد ساهم فى أرساء دعائم الوحدة الأوروبية.. وخلق حالة من التفاهم بين الشعوب.. فصار الزى الرسمى للجنس اللطيف هناك.. فمن المؤكد أن صديقتى سوزى موضة قديمة.. ضد كل أشكال الوحدة والاتحاد.. فالجونة تغطى الكعبين.. وفوق البلوزة بلوفر خفيف يغطى الذراعين..

وراحت سوزى تحكى لى عن الانجليز الذين لا تحبهم.. وتروى أحدث نكتة عن جلالة الملكة.. وفصائح أولاد جلالة الملكة.

وبينما تحكى شهرزاد.. وأنا سعيد فرحان.. والجو رومانتيكى جميل.. ورذاذ المطر الخفيف يضيفى شاعرية على الحكاية.. فجأة تنقلب الأحوال.. فيتوقف المطر.. الشاعرى.. وتحل الشمس ساطعة ساخنة.. فإذا بالبنت الأيرلندية المحتشمة.. تتبدل من حال إلى حال.. تخلع هدومها قطعة قطعة.. فى عرض استريتينز من النوع المجانى.. وفى لحظات تمددت أمامى عارية.. لا جونة ولا بلوفر ولا فانلة.. ولا حاجة أبدا.. فقط مايوه صغير يشبه المايوه الرجالى.. ومن أصغر نمرة..

الخيبة القوية.. أن جميع من بالحديقة.. ويدون استثناء.. رجال ونساء.. شباب وعواجيز.. قد فعلوا مثل سوزى المحتشمة.. فخلعوا ملابسهم وتمددوا زلط ملط فى الحديقة.. وبينما أنا أحاول استيعاب المسألة.. وفهم الموقف.. قالت لى سوزى إنها تفضل «التويلس» فى هذه الشمس المشرقة.. و«التويلس» يعنى موضة النصف الأعلى العريان.. عريان من كل شيء.. ماعدا ورقة توت مكسوفة تستر النصف السفلى.. قالت لى سوزى إن الموضة ليس لها علاقة بالأدب.. أو قلة الأدب.. لكنها موضة صحية مفيدة

للجسم البشرى..

وقد بدأت استوعب المسألة.. واستكشفت الموقف حولى.. وقد استلقت بالقرب منى بنت فاجرة عريانة.. فقلت لها: فعلا الموضة مفيدة وصحية جدا.. تجعل البنى آدم قوى الملاحظة.. حاد النظر.. خبير فى علم الأجناس عالم بأمور التشريع.. وعلم الجمال..

فقلت لى: أقصد أن من حق الجسم البشرى أن يتنفس.. وأن يستمتع بالشمس.. وأن يعرض مسام جلده للهواء النقى.. للاستفادة من فيتامين «ه».. وهذا الفيتامين بالذات له علاقة بالخصوصية والحيوية.. وتواصل الجنس البشرى..

قالت البنت الايرلندية المحتشمة سابقا.. إن الشعب الانجليزى متخلف جدا.. لأنه يكتفى بالتوبليس وخلاص.. ولا يتطور أبدا.. فى حين أن الفرنسيين أكثر تطورا.. لأنهم يؤمنون بالمذهب الطبيعى.. وهناك مليون فرنسى.. يذهبون سنويا.. لقضاء العطلات.. فى قرى خاصة اسمها قرى الطبيعيين.. وفى هذه القرى يخلعون ملابسهم تماما.. ويتحررون من كل شىء.. ويتجربون حتى من ورقة التوت الهائفة.. فيذهبون للسینما والسوبر ماركت.. ويلعبون الكوتشينة والتنس.. ويركبون المواصلات العامة.. ويتفصحون بالدراجات والقوارب البخارية.. وكلهم زلط ملط.. يامولای كما خلقتنى.. رجالة وستات.. وأحيانا على سبيل التغيير والزهق.. يدهن الواحد منهم جسمه بالألوان الطبيعية.. أحمر وأزرق وأصفر.. وقد لاحظ علماء الاجتماع.. أن معدلات الجريمة قد تقلصت جدا فى القرى الطبيعية.. فقلت لها إننى أفهم ذلك طبعاً.. لأنه لا يوجد حرامى عريان.. لأنه لن يستطيع أن يخفى المحافظة المسروقة.. ثم انه لا يوجد فى القرية هدم وحبال غسيل.. لكى يقصها الحرامى ويسرقها..

وبينما سوزى الايرلندية تحكى وتتحمس.. دفاعا عن قضيتها.. تمددت بالقرب منى الأخت الخواجاية الفاضلة.. وهى عريانة توبليس.. تتقصع وتتمتع.. وفى يدها دماغ حبيب القلب.. وهى تطيع وتطرق القبيلات اللتهية.. وأخونا مشغول عنها.. غرقان لشوشته فى الجرنال.. عامل ثقيل

حضرته.. تقولش حسين فهمى اسم الله.. مع أنه يشبه وحيد سيف.. وإذا كان حضرته ثقيل هكذا.. فماذا عن البيت.. ومن المؤكد أنه ثقيل فى البيت أيضا.. وإلا بماذا نفسر قلة العيال.. والاحصائيات تؤكد تدهور معدلات الخلفة والانجاب.. رغم التوبلس وفيتامين «ه».. واحجام الجيل الجديد عن الزواج أصلا.. وكأنه زيون مستديم لبرامج الست كريمة مختار.. وزيرة السكان التليفزيونية.. والمسئولة الأولى.. عن زيادة الخلفة فى مصر..

واتفرج على ما يدور حولى.. وأنا لا يص.. والكل ها يص فى حالة التوبلس.. ولا أملك سوى النظر للسماء.. أدعو على اخونا الثقيل البارد والذي يشبه وحيد سيف.. والغارق فى الجرنال.. ولا تحركه القبلات الساخنة.. التى تحرك الحجر..

قالت لى الأخت المتحمسة تحاورنى: إن الهدوم اختراع عتيق.. يصلح لعصر الجوارى والحريم.. والتوبلس اكتشاف متطور.. يناسب ثورة الكمبيوتر والليزر.. والدنيا فى حالة تغير مستمر.. والأفكار الجديدة تتطلب الحماس والصبر.. علينا أن ندعو للموضة الطليعية الجديدة.. التى سوف تغزو العالم بإذن واحد أحد..

قلت لها: إن الفكرة لا تبدو عملية أبدا.. وهى اكتشاف قديم بالمناسبة.. من اختراع المرحومة جدتى فى غابات افريقيا.. تماما مثل موضة فردة الحلق التى يلبسها الرجال الآن.. على أنها موضة أوروبية.. فى حين أن جذورها تعود إلى افريقيا أيضا.. والمشكلة أن اختراعاتنا تبدو فى نظركم بدائية وتخلقا.. فى حين أن اختراعاتكم تبدو أوجينال وتجديدا.. ومع هذا لو طبقنا الفكرة.. فسوف تطلق مصانع النسيج أبوابها.. وسوف يقلس الأخ بيير كاردان.. وهو ما لا يصح ولا يجوز..

قالت لى صاحبتى: إنكم تأخذون عن الغرب كل شىء.. وعليكم الآن التخلص من بيير كاردان.. وإيف سان لوران.. وكافة أشكال الاستعمار «الهدومى».. وعليكم أن تصبحوا شعبا يلبوصا.. يستمد قراره من طبيعته ووفقا لظروفه الخاصة..

قلت لها: إن الحكاية تبدو مغرية بالفعل.. ليس أغراء جنسيا لا سمح الله.. ولكنه أغراء سياحي.. وسوف يأتي السياح من كل مكان.. لرؤية خالتي سيد قشطة.. وهي تتعري تويلس.. بعد أن تضع لمساتها الشرقية على الموضة الشفتشي.. وبدلا من أن تتعري السنيورة لتأخذ حمام شمس.. سوف تتعري مدام سيد قشطة لتأكل الفسيخ.. وتعمل محشى فى الحدائق العامة.. وهي مناظر سوف تساهم فى زيادة الدخل السياحي.. ولكن هناك مشكلة.

ومن المؤكد أن السادة الأغنياء.. وهوانم الطبقة الراقية.. سوف يقاطعون الموضة الجديدة.. التى تساوى بين الرؤوس.. فإذا مشيت بين قطيع من التويلس.. فلن تعرف فلانة هانم.. من خالتي فلانة.. ولهذا سوف ترفع الهوانم راية العصيان.. والواحدة منهن تفضل أن تلبس الفراء فى عز الصيف.. مادام من تصميم بيرو كارديان.. على سبيل التفاخر والتباهى.. و.. احتدمت المناقشة بينى وبين صاحبتى المتحمسة للموضة الصيفية خالص.. فى حين ظل الأخ وحيد سيف على جموده وبروده.. واستمتعاه المريب بالجرنال فى يده.. وارتفع الصراخ بينى وبين صاحبتى.. كدليل على الحماس فى المناقشة.. أقول لا.. تقول نعم.. أقول يمين.. تقول شمال.. «أقول طور».. تقول احليوه..

و.. أخيرا قررت العودة للجذور.. واختصار وقت المناقشة.. وصولا لوحدة الهدف.. فخلعت رجل الكرسي.. وجريت وراء صاحبتى المتحمسة.. محاولا اقناعها بالطريقة الأسهل.. وبالمرة وفى طريقى.. جريت وراء جميع الأخوات من قبيلة التويلس.. محاولا اقناعهن.. أما الأخ الباردا جدا.. وحيد سيف.. فقد أخذ منى علقة مناسبة.. بعد أن خطفت الجرنال من يده.. ومزقته تسعين مليون قطعة!!



شرطة كافحة

الصالة



طوال رحلتى فى لندن الجميلة.. وربما لأسباب فنية.. لم أحلم مرة واحدة بالانجليزى.. ولم أشاهد فى المنام.. بنات لندن اللهلويات.. وحدائق لندن التى ترد الروح.. مع أن الرحلة بالاسترلينى.. وجميع أحلامى كانت بالعربى الفصيح.. وبالصوت والضوء.. فشاهدت مواصلات القاهرة.. وزحام شبرا.. وحفر ومطبات وسط البلد.. وحملت طبعاً بالبوليس المصرى النشيط.. وفى هذه النقطة بالذات.. لعبت بى الهواجس.. وهاجمتنى الكوايس.. وطارتنى أحلام اليقظة.. والسبب اننى قرأت قبل النوم «جرنال صغير» فى حجم كراسة الرسم.. لكنه طويل اللسان جداً.. كقطار أروج مندفع.. يدهس من يقف فى طريقه.. وقد فتح النار على الجميع.. وعلى الكبار بوجه الخصوص.. فلم يسلم من لسانه أحد.. وميزة المجتمع الانجليزى.. أن الكبير عندهم ليس على رأسه ريشة.. وقد خفت ويصراحة.. أن يقع الجرنال فى قبضة بوليس اسكتلانديارد.. أو فى يد مخبر صاحى.. وربما بيننا وبينهم اتفاقية لتسليم القراء.. إسوة بتسليم المجرمين.. وربما عندهم مباحث مخصوصة لمكافحة القراء.. أو قانون جديد للصحافة.. يعاقب القراء.. على اعتبار أن القراءة مسئولية كل مواطن.

وعلى أى حال فقد قمت بالواجب فى المنام.. فمزقت الجرنال ومضغته.. وبلعته مع شربة ميه.. تحسباً للظروف.. ومن باب الاحتياط.. وحتى لا تقع الفأس فى الرأس.. فأقضى بقية منامى.. أكسر لظليمان طره الانجليزى.

وفى الصباح.. عبرت عن مخاوفى لصديقتى سوزى الايرلندية.. التى ضحكت من عبطى.. وخيبتى الثقيلة.. وقالت إن ما قرأته هو جرنال تابلويد.. يباع علناً فى الطريق.. وهو الجرنال الشعبى للفضل لدى جماهير القراء.. وإذا كان جرنال الجارديان الرصين والمحترم.. يوزع ٣ ملايين نسخة يومياً.. فإن جرنال الميرور الشعبى يطبع ٨ ملايين.. ويقرأه الجميع.. الكناس فى الشارع.. وحضرة رئيس الوزراء شخصياً.

ميزة جرنال التابلويد.. مثل الميرور.. أو الصن.. أو الديلى ميل.. أن لغته سهلة.. ومقالاته مختصرة ومفيدة.. يخاطب القارئ المستعجل فى المترو والاتوبيس.. يشرح

بسرعة تفاصيل الأمور.. ويتجاهل عمدا القضايا الدولية المعقدة.. ويفضح الفساد والمفسدين.. ويركز على فضائح الكبار.. فالصحافة هي مرآة المجتمع بحق وحقيقى.. وجرائد التابلويد مسئولة عن توجيه الرأى العام.. خصوصا فى القضايا الداخلية.. وهي تسهم بوضوح فى نجاح الحزب.. ووصول رئيسه إلى نمره عشرة دوانج ستريت.. المقر الرئيسى لرئيس الحكومة.. كما تلعب دورا حقيقيا فى سقوط الحزب الآخر.. والسبب أن رسالة جرنال التابلويد.. موجهة إلى رجل الشارع.. بأسلوب بسيط.. وتستخدم تعبيرات دارجة.. وحكايتها مع حزب العمال فى الانتخابات الماضية معروفة.. فقد كانت جميع استطلاعات الرأى.. تشير إلى اكتساح العمال للانتخابات.. بزعامة الوجه الجديد واللامع وقتها.. نيل كينوك.. وخصوصا أن حزب المحافظين كان يعاني من الترهل والخلافات الداخلية.. بعد اعتزال الحيزيون مارجرى تاتشر.. ولكن جريدة الديلى تلجرف.. التى تدافع عن المحافظين.. شنت حملة قاسية ضد حزب العمال.. واتهمته أنه ينوى زيادة الضرائب.. على حساب الطبقة المتوسطة.. بدليل بعض التصريحات الغامضة لرئيس العمال.. الذى لم يهتم بالرد.. وتقنيد آراء الجريدة.. فتدهورت فجأة شعبية الحزب قبل أيام من الانتخابات.. وفاز المحافظون بزعامة جون ميجور.. واضطر حزب العمال إلى التخلص من زعيمه الكسلان نيل كينوك.. واستعان بزعيم جديد.. عسى أن يكسب الانتخابات الجديدة.. والتى تدق الأبواب بعد شهر..

أنيسطت جدا من الحكاية.. وسألت صديقتى سوزى.. عن مصادر تمويل جرنال الحزب.. وعما إذا كانت الجماهيرية تساهم فى الدعم.. أم أن المنظمة هى الممول الرئيسى.. لم أن الجرنال يتلقى فلوله مباشرة من الأمريكان.. أسوة ببعض الجرائد إياها.. التى ترفع لواء المعارضة.. ولا تستحي من أن تمديدها بحجة الدعم والتمويل.. فقت سوزى صدرها الجميل بيدها الرقيقة.. وقالت إن ذلك يدخل فى باب الخيانة والعمالة والاستنزاق وخداع الجماهير.. وعندنا فلول الأحزاب الاتجليزية.. وميزانيات الجرائد واضحة وعلى المكشوف.. وإذا ثبت أن الحزب أو الجرنال.. قد فتح مخه.. فإن المصير هو السجن والفضيحة بجلال.. ثم أن الجرنال يكسب من التوزيع والإعلانات.. فلا داعى إذن لزيادة الخير خيرين.. ولا تنس أن الديمقراطية ليست مجرد كلام وشعارات.. فالديمقراطية سلوك وممارسة واحترام النفس قبل أى شىء.. واستقلال الجرنال ضرورى.. لكى يتحرك بحرية فى الساحة.. وإذا كانت على رأس الجرنال بطحة.. فإنه لن يستطيع مواجهة الفساد.. ولن يستطيع أن يخوض معركة

ضارية.. كذلك التى خاضتها جرائد التابلويد.. ضد مارك تاتشر.. ابن رئيسة الوزراء
الحديدية سابقا..

فقد اكتشفت الصحافة.. أن الابن المذل.. الغرقان لشوشتة فى سباقات السيارات
والموتسيكلات.. قد انتقل فجأة لخانة رجال الأعمال.. وأن جيبه منفوخ.. ويمتلك عدة
شركات ضخمة.. فهاجت الصحافة.. وفضحت تاتشر وابنها الوحيد.. ووصل الأمر
إلى القضاء.. حيث يواجه مارك تهمة الفساد والتربح.. ويواجه أيضا احتمال مصادرة
أمواله.. بل ويواجه السجن بعد ذلك.. إلى جانب عقوبة الاحتقار والازدراء من المجتمع..
الذى لا يسمح بتلك الجرائم الصغيرة..

ضحكت حتى وقعت على قفائى.. وقلت لسوزى المجنونة.. الاتلاطين.. إنكم معشر
الغرب.. تحبونها حبتين.. مع أن المسألة عادية جدا.. وعندها فى عالمنا الثالث
والثلاثين.. من حق الموظف العام أن يعمل.. ومن حق الابن أن يعمل أيضا.. وهناك
مسنولون.. ملء السمع والأبصار.. ويقبضون من شغلهم الشيء الفلانى.. ومع هذا
يؤسسون شركات منافسة باسم الابن أو الزوجة أو زوجة الابن.. ويتولى حضرة
الوالد.. إدارة الشركة العامة صباحا.. وإدارة الشركة الخاصة بعد الظهر.. وإذا
سألت الواحد منهم.. قال لك وما نذب ابنى إذا كان يهوى التجارة وشغل البيزنس..
ومن غير المعقول.. أن أكون فى موقعى أسنوات طويلة.. وأن يحرم ابنى من الانطلاق
والمشاركة.

باختصار الوظيفة العامة عندها.. مجرد برستييج.. وإضمان المعاش ومكافأة نهاية
الخدمة.. أما الوظيفة الحقيقية.. فهى التى نمارسها بعد الظهر.. لأن المسنول عندما
يحال للمعاش.. فمن غير المعقول أن يلعب طاولة.. أو يجمع بامية.. أو يمارس الجولف
كما تفعلون أنتم.. وإنما يمارس نفس العمل من خلال الشركة الاحتياطى.. التى
أسسها باسم الأبناء..

الغريب فى الأمر.. أن الحكاية بدأت بصغار الموظفين.. بحجة تحسين الدخل.. ثم
امتدت للكبار.. فصارت ظاهرة.. وأصبح الواحد منا له وظيفة رسمية.. و.. عشرة تحت
الأرض..

قلت لسوزى بانبهان: إذا كنتم تتمنون الشغل هكذا.. فهذا يعنى أن بلادكم من أغنى
بلاد الدنيا.. وأنتمنى زيارة بلادكم العجيب.. لأعاین على الطبيعة.. وأتعلم كيف تدور
الأمور.. وكيف أن الموظف المصرى.. يسبق اليابانى والكورى فى حبه وتفانيه
وأخلاصه للعمل..

قلت لها أنتى مستعد لدعوتها فوراً.. بشرط ألا تكتب ما تشاهده فى صحافة
التابلويد طويلة اللسان.. لأنها صحافة غير مؤيدة.. تساهم فى خراب البيوت العامة..
وإذا كانت قد تصدت لمارك، تانتشر.. لأنه استغل وظيفة ماما.. فما ذنب أولاد جلالة
الملكة.. الذين صاروا ملطشة حقيقية لأصحافة التابلويد المثيرة..
قالت سوزى بهدوء: إن الصحافة كشفت فضائح العائلة المالكة.. ولم تختزع تلك
الفضائح.. بل ليل أن بعض أفراد وأصدقاء العائلة يمد الصحف بالجديد من
الفضائح.. وفى حرب تشارلز-ديانا.. ساهم الطرفان بمد الصحافة بأسرار الطرف
الأخر.. وفى الحقيقة فإن العائلة المالكة قد ارتكبت جميع الأخطاء التى لا تقع فيها عائلة
بريطانية محترمة.. فلم تعد مثالا للمحافظة على الأصول والتقاليد الراسخة.. وفى
الماضى القريب.. هاج المجتمع لطلاق الخالة مارجرى شقيقة للملكة.. الآن صار
الطلاق هو العلامة المميزة لتلك العائلة.. وليست مصانعة أن الأبناء كلهم طلقوا
بالثلاثاء.. أو فى سبيلهم لذلك.. وبالإضافة إلى تشارلز ولى العهد الذى انفصل عن
زوجته ديانا الجميلة.. فإن الشقيق أندرو قد طلق زوجته وأم بناته سارة.. والأخت آن
حصلت على الطلاق.. بعد أن ارتبطت زوجها مارك فيليبس بمذبة تليفزيون مشهورة..
ويتبقى الابن الثالث إدوارد.. الذى لم يتزوج بعد.. ويعد من عذاب أوروبا المشهورين..
وإذا كانت جلالة الملكة قد طالبت الصحافة بأن ترفع يدها عن آخر العنقود.. فإن
الصحافة فى المقابل طالبت جلالة الملكة بالحفاظ على سير وسلوك إدوارد.. لأنه لا
حصانة لمنحرف.. أو أمير يلعب بذيله.. خصوصاً أن الموضة الآن بين أمراء أوروبا..
هى الجرى وراء الجميلات من عارضات الأزياء بالذات.. وارتكاب الفضائح بالجملة..
ومصممت سوزى شفقتها مثل زينات صدى.. وهى تتحسر على ضياع أخلاق
الملوك.. وقالت: هل تصدق أن تشارلز ولى العهد.. يصادق علناً امرأة متزوجة..
ويفضلها على زوجته الجميلة.. والتى يحبها الناس ويحترمونها.. وهل تتخيل أن البرت
أمير موناكو.. والذى كان مثل القطعة المغمضة.. يقضى وقته متنقلاً بين عارضتى
الأزياء كلوديا شيفر الألمانية.. وناعومى كامبل الصومالية.. وهل عرفت أن فريديك أمير
الدنمارك.. والذى لم يخرج من البيضة.. يعيش عارضة أزياء سويدية اسمها كايتا..
وماكون أمير النرويج الطبيب يرتبط بعارضة الأزياء كاترين.. وحتى فيليب أمير
اسبانيا.. وابن الأصول.. متطوق بعارضة أزياء أمريكية مغمورة اسمها جيجى.. فهل
تصدق كل تلك.. وإذا كانت الصحافة ترى هذه الأمور والأفعال.. وترى الصور
الفوتوغرافية الفاضحة للأمراء.. فهل تصمت أم تحذر الراى العام من ملوك

المستقبل ١٩

قلت أهدي، من غضبها من الأخوة الملوك: لكن الصحافة زويتها حبتين... ببلييل ناك الهجوم الحاد على الأمير فيليب زوج جلالة الملكة اليزابيث..

قالت بجدة: الأمير فيليب غطان.. ويجب أن يعترف بخطئه.. فقد ذهب لافتتاح مصنع جديد في اسكوتلندا.. ومن الواضح أنه أعجب بالمصنع.. ويدل من أن يقول كلمتين كويسين في حق الاسكتلنديين.. حاول الاستظراف.. وسأل مدير المصنع بسماجة: كيف نجحتم في التوقف عن شرب «الاسكوتش»؟ يعني الويسكي الاسكتلندي الفاخر.. وتقر غتم لبناء المصنع؟

وعلى الفور رد مدير المصنع بأن ملاحظة الأمير غير مفهومة.. ومن الأفضل له أن يتعلم الإنجليزية إن كان لا يجيد الكلام.. صحيح أن الشعب الاسكتلندي ينتج الويسكي.. ولكن من أجل الانجليز السكارى.. ثم أن الاسكتلنديين بالذات مشهورون بحب العمل والتفاني في الإنتاج.. عكس الانجليز الكسالى..

و.. لم يعلق الأمير.. لكنه أكد للصحافة عندما سألته.. بأنه لم يكن يقصد اهانة الاسكتلنديين.. وأن المدير لم يفهم النكتة.. فسارع المدير يعلق في الصحف.. إننا شعب يحب النكتة بشرط أن تكون خفيفة الدم.. ومن الواجب على سمو الأمير قبل أن يتورط في إطلاق نكتة.. أن يصدر بياناً يعلن فيه أنه سيقول نكتة..

وهكذا نكأ الأمير باستظرافه جرحاً حقيقياً.. وجدد العداء التقليدي بين الانجليز والاسكتلنديين.. وكما تعرف فإن بريطانيا العظمى تضم إنجلترا واسكوتلندا وأيرلندا وويلز.. ويعانى الاسكتلنديون بالذات من الشعور بالاضطهاد.. ونكت الصعادية فى مصر.. تسمعه فى قلب لندن.. ويدل من الصعيدي فى النكتة.. هناك الاسكتلندي الطيب والساذج والعشيم أحياناً..

قالت صديقتى سوزى تضع النقاط فوق الحروف: إن لدينا قواعد مستقرة.. وعندنا حرية صحافة حقيقية.. ولدينا ديمقراطية راسخة.. عمرها عشرات السنين.. قلت لها نعم.. ببلييل الهايدبارك.

قالت كالشريك المخالف: الهايدبارك راحت عليه.. وصار الخطباء يتكلمون فى المسائل الفارغة.. والهايدبارك الجديد هو التلفزيون.. الذى هو فرجة حقيقية.. فانت فتفتح التلفزيون فتري كل شىء.. وعلى عينك يا تاجر.. وتناقش جميع القضايا.. بدون حرج.. أو خوف.. والتلفزيون عندنا تليفزيون رأى.. وهو يختلف عن بعض التلفزيونات التى تطبل وتزمر.. والمذيع عندنا لا يقرأ من الورقة أوجه جهاز المونيتور

أمامه.. لكنه مذيع مثقف وواع وحاضر.. وذلك لأننا نختار الأصلح لوظيفة المذيع..
ويستعين باستطلاعات الرأي.. والمذيع الرفض جماهيريا يستبعد فوراً.. ولا نعرف
أسلوب المجاملات في الاختيار..

واقترح نشر الأخبار.. تجد أن الخبر الأول فيها هو ما يهم الناس فعلاً.. وليس طبقاً
لما يهم الحكومة.. ومع أنه تليفزيون رأي.. إلا أنه لا ينحاز لحزب من الأحزاب.. وإذا
أخطأ حزب أو مسئول.. فضحه التليفزيون في التناول اللحظة..

عند هذا الحد.. حاولت إنهاء المناقشة.. بعد أن شعرت أن سوزى تتجاوز الخطوط
الحمراء.. فلجأت إلى حيلة معروفة.. وهي أن أشتاب وأتناوم.. عسى أن تصيبها
العنوى فتنام هي الأخرى.. لكنها شددت قامة كليل على تحمسها.. وحكت لي حكاية
أضراب عمال النظافة.. بسبب مطالبتهم بزيادة العلاوة السنوية.. فتكومت الزبالة في
الأكياس في الطرقات تسد الطريق.. في الوقت الذي دارت فيه المفاوضات الشاقة..
لحل الأزمة التي شعر بها كل بيت.. فإذا بالأمير تشارلز ولي العهد.. يطلق تصريحاً
يعبر فيه عن قرفته من تكديس الزبالة في الشوارع.. ويطالب العمال بضرورة العودة
لأعمالهم من جديد.. وهاجت الصحافة.. ونشرت تصريحاً مضاداً لرئيس نقابة
الزبائين.. يرد على الأمير.. وقال رئيس النقابة المحترم.. إنه يجب على الأمير تشارلز أن
يتعلم متى يتكلم.. وأن يلزم حدوده..

و.. لم يعلق تشارلز.. الذي التزم حدوده.. وعاد لقواعده من جديد.. وطبقاً للقواعد..
يتكلم ولي العهد في اللوحة وفي الفن والثقافة.. بدون أن يتورط في إصدار أحكام
قاطعة.. وممنوع منعاً باتاً.. طبقاً للدستور أن يتورط في شغل السياسة.. وأضرابات
العمال..

و.. من جديد.. عدت أشتاب بكسل شديد.. عسى أن أقنع سوزى بالتوقف عن مسك
سيرة الحكم.. ومن الواضح أنني نجحت ويامتياز.. لأنني بعد برهة.. لم أعد أسمع
صوتها نهائياً.. بعد أن رحت في سبات عميق.. أحلم بالقاهرة.. وبالعريى الفصيح..!

١٩

اميرة ويلز تتسلم هداياها



لولا البخت والنصيب.. لكانت الليدى ديانا الآن.. تحمل لقب مدام «حنفى».. وتعيش معنا فى قلب المنيرة.. تاكل وتشرب.. وتسعى فى الأسواق.. تركب المواصلات العامة.. وتعانى أزمة الاسكان.. وتقف فى الطابور تستجدى وتستعطف الست الناطرة.. من أجل قبول العيال فى الحضانة..

وأبصم بالعشرة.. أنها كانت ستعيش أسعد حالا.. وأهدأ بالا.. وأكثر استقرارا وأمانا فى حياتها العائلية المتواضعة.. بعيدا عن بهدلة الجرائد.. وتطفل وإكاعة عذسات المصورين المتنطعين فى كل خطوة.. المترصدين لها على كل باب تذهب إليه..

و.. مسكينة ديانا.. عاشت حياتها بالمقاس.. وتحت الأباجورة.. كل شيء مكشوف ومحسوب عليها.. إذا تحركت رصدوا خطواتها.. ولو تكلمت علقوا وأفتوا بدلا منها.. وإذا صممت وسكتت حسبوا أنفاسها.. وإذا توترت ويكت قالوا أزمة عاطفية.. وإذا ارتبكت قالوا جليطة وقلة ذوق.. أما لو ضحكك فياداهية دق.. فالضحك من غير سبب قلة أدب.. وخروج على الأصول والعرف والأتيكيت وتقاليد العائلة المالكة.. التى تفضل الشوكة والسكين فى الأكل والكلام والضحك والمشى والسكون والحركة..

وطوال ١٢ عاما.. وأنا أحمل هم ديانا.. وأتابع الخيبة التى وضعت نفسها فيها..

إذ يشاء الحظ ومحاسن الصدف.. أن أكون من جيران الليدى ديانا. قبل أن تصبح ليدى.. عندما كان اسمها ديانا حاف. وعندما كانت تسكن فى نفس الحى الذى أقمت فيه فى قلب لندن أواخر السبعينيات.. حى «إيرلس كورت».. بل وفى نفس الشارع «أولد برومبتون رود»..

ولو كانت البلية قد لعبت.. لكنك الآن عريس ديانا المحترم.. بدلا من العريس الذى لا طعم له.. ولا لون ولا رائحة.. الذى يهجر بيت الزوجية بالاسبوع والاثني.. ليلعب «بولو» مع أصحابه.. ويفضل ركوب الخيل على مصاحبة زوجته الرقيقة.. التى أغراها بالفلوس والحسب والنسب.. فتخلت عن الرومانسية القديمة.. وذكريات حب الطفولة.. لتتدفع فى جوارزة محسوة بالورقة والقلم والكمبيوتر..!!

· فوالد ديانا.. وعلى طريقة الأقلام العربية.. اللورد «إيرل أوف سينسر» من أصحاب الفخامة الانجليزى المفلسين.. الذين تنطبق عليهم مقولة عزيز قوم ذل رجل يحمل لقباً نبيلاً.. لكنه لا يملك ثمن عشاءه

وفى بريطانيا التى غابت عنها الشمس من زمان بعيد.. كل شيء بالفلوس.. حتى كرامة الإنسان.. ولو كان جيب حضرتك خاليا كحضرتنا ستنام خفيفا.. حتى لو كنت جون ميجور شخصيا . أما لو كنت تحمل فلوسا من أى نوع.. خاصة الاسترلىنى.. أو لو كنت من ذوى الشيكات وكروت الائتمان البنكية.. فسيشيلونك على كفوف الراحة.. ويقفون لك «زنها» فى الرايحة والجاية..

وقد كان اللورد سينسر من النوع الأول.. نفخة كدابة.. ثقر وعنطزة.. ورث لقباً نبيلاً.. لكن جيوبه أنظف من القيشانى المستورد.. ثم إنه يهوى أطايب الأكل والشراب.. وله فيه صولات وجولات.. وفوق هذا وذاك.. فهو رجل مزواج.. طلق أم ديانا الطيبة.. وتزوج من المدام حيزيون.. وعاش على فلوسها . يسهر فى البارات.. ويشرب على حساب المدام..

ولهذا تركت ديانا بيت الوالد ميكرا.. واشتغلت مدرسة أطفال فى حضانة متواضعة.. واستقرت معنا فى إيرلس كورت.. تشترك مع اثنتين من صديقاتها فى شقة مشتركة.. يتقاسمن الإيجار والكهرياء . وساندوتشات الهامبورجر.. وحساب البقال..

ولأنها ابنة لورد.. وبطبيعة الطباقية فى المجتمع الانجليزى فالمقامات محفوظة.. ومن الطبيعى أن يسمح لديانا بدخول القصر الملكى فى الحفلات العامة وحضور الولائم والأفراح.. حيث العشاء مجانا.. وبالمرة تتفرج على

خلق الله الراقية.. من العائلة المالكة وعائلات النبلاء واللوردات والأغنياء..
فى واحدة من هذه الحفلات تعرف تشارلز بديانا.. خاصة أن تشارلز
كان يبحث عن عروسة يكسر بها حاجز النحس والعزوبية.. بعد أن رفض
عدد من بنات الأسر الكريمة الارتباط به والدخول فى سجن الملكية والتقاليد
التي أكل الدهر عليها وشرب ونام..

و.. بدأت الصفقة التي شاملك فيها السيد الوالد.. ومن الواضح أنه تأثر
باللورد حسن الامام.. وكع تحت قدمي ابنته وهات ياعياط.. متوسلا
ضارعا.. أن تتزوج من تشارلز الفنى.. وبعد أن حجزوا على العفش
والشقة واليخت والرولزويس.. وأصبحت فضيحة..

و.. ضحت ديانا بنفسها وقررت انقاذ الوالد واسم العائلة الكريمة..
فتزوجت تشارلز.. زواج منفعة يعنى..

وهكذا تزوج الغراب ياوقعة سودة.. من أحلى يمامة فى إيرلس كروت..
الخيبة الثقيلة.. أنتى لم أكن أعرف ديانا.. مع أنها جارتى.. واكتشفت
متاخرا.. كما هى العادة.. المصيبة بعد وقوعها.. عندما جاءت الشرطة
الانجليزية.. لتفرض حراسة خصوصية على أحد بيوت المنطقة.. فسلنا
وتقصينا وعرفنا أن ساكنة الشقة فى الدور الأرضى.. هى ديانا عروسة
تشارلز المنتظرة..

ونمت ندما شديدا.. إذ تمر الفرصة والحظ والنصيب بالبنى آدم مرة
واحدة فى حياته.. فإن لم يفتتها ضاعت وإلى الأبد.. وللأسف لم أنتبه
للفتنة الذهبية التي مرت تحت أنفى.. ولم أدركها فى الوقت المناسب.. ولو
كنت أعرف أن ديانا تسكن على بعد ٢٠ خطوة من بيتى.. لعسكرت أمام
بيتها.. محاولا لقت الأنظار.. وتقديم قرايين الحب والمحبة.. فهى جارتى..
والجار أولى بالشغعة..

غير أنه من المؤكد.. مادامت جارتى - إننى التقيت بها أكثر من مرة.. ولم
الحظ ربة الصون والعفاف.. ففى إيرلس كورت قهوة «ترويانور» الشهيرة..
وهى قهوة قديمة لها طابع مميز.. يزورها أهالى لندن.. حيث للقعدة
رومانتيكى.. بفضل الفنانين الفيلسفين الذى يقصدونها بالذات.. فهى المحل

المختار للمرحوم هنرى مور النحات الأشهر فى العالم.. ثم أنها محلى المختار أيضا . فصاحبها يبيع لنا القهوة والسندوتشات بالتقسيط المريح.. تماما كمقامى مصر. وفى «تروبادور» مارست لعبة الشطرنج مع شلتى التى تضم أصدقاء من كل الجنسيات.. منهم الأسباني واليطياني والفرنسي والانجليزى والفنزويلى والألماني.. ومن المؤكد أن ديانا قد مرت بالقهوة أحيانا.. ومن غير المستبعد أن أكون قد جذبت انتباهها.. لكن لخمى مع الشطرنج . قد ضيعت على الفرصة.. ومن الضرورى أنها ينست من صدى وهجرانى.. فتركت القهوة إلى غير رجعة..

أو أكون قد التقيت بها مرة فى سوبر ماركت «سيف واى» حيث البضاعة أرخص.. البيع بسعر الجملة.. وجميع أهالى «ايرلس كورت» يقصدون «سيف واى» ومن غير المستبعد وديانا التى تعيش بمرتب متواضع.. أن تكون قد مرت «بالسيف واى».. لكن ضعف البصر والبصيرة لم يمكننى من اكتشاف السندريلا فى الوقت المناسب..

وربما أكون قد جلست بجوارها يوما فى مترو «الأندر جراوند».. ففى المترو الانجليزى.. كل الناس تقابل كل الناس . ومترو لندن يركبه اللوردات والبهوات والتلامذة والهوانم والصياغ.. ومن المحتمل أن نكون قد جلسنا متجاورين.. لكن الكابتن كيوييد لم يلعب دوره وقتها.. بسبب البرد أو النعاس وقلة النوم.. فمر اللقاء مرور الغرياء..

وإذا كان محسوبيكم سيىء الحظ لأننى لم أقابل ديانا فى الوقت المناسب.. فمن المؤكد أن حظها كان كذلك.. ولو قابلتنى وقتها.. لتغيرت ألوان حياتها تماما.. وتحولت إلى بمبى بمبى.. فأنا على الأقل لست من أصحاب الدم الانجليزى البارد.. فعندى نخوة وشهامة.. وأقدر صنف النساء.. خاصة النوع الانجليزى الهادىء الرقيق.. ولن أتركها وحدها فى البيت بالساعات والأيام.. كما يفعل زوجها تشارلز.. ولن أفضل لعبة البولو عليها . لسبب بسيط اننى لا أجيد البولو.. ثم أننى لم أركب حصانا فى حياتى

ومعنى سوف تتمتع ديانا بميزة اضافية.. فوق البيعة.. فلحسن الحظ أننى

معدوم الوسامة.. ولهذا سوف أشعر بالنقص والعقد النفسية.. وسوف أسعى لارضائها بكل وسيلة.. ومعى لن تعانى ديانا من مشاكل الغيرة.. لأننى لو قابلت نصف نساء لندن.. فلن تشعر بالقلق.. لأننى لن أفت نظر واحدة منهن.. ولهذا سوف تعيش معى فى راحة واطمئنان..

ثم اننى كنت ستأزوجه زولجا طبيعيا.. على بركة الله.. كالبطيخة وبختك يا أبو بخيت.. أما تشارلز فقد أخذ ديانا على السكين.. فذهبوا بها أولا للطبيب.. ليؤكد أن صحتها عال العال.. وأنها ليست عاقرا.. وخصبة ولود.. يمكن أن تلد صبيانا وبنات.. ولهذا تزوجه.. كمصنع متحرك.. لانجاب أولياء العرش..

ولحسن الحظ أنهم فى أوروبا لا يؤمنون بحكايات الفقر والغنى.. والفوارق الطبقيّة.. وأسطورة الدماء الزرقاء وغير الزرقاء.. بدليل أن الأميرة ستيفانى ستيورة مونكو.. تزوجت من بائع سمك على باب الله.. وأختها كارولين تزوجت من حارسها الخصوصى.. ورومى شنيدر تزوجت من سائق سيارتها وأنجبت له ريع دسته أطفال. وناستاسيا كينسكى تزوجت من مصرى محظوظ.

ثم إن ديانا نفسها تزوجت وهى المفلسة.. من تشارلز ابن أغنى سيدة فى العالم ومن المؤكد اننى بيع بعض التحسينات والاصلاحات الضرورية.. سوف أتحوّل إلى نجم من نجوم المجتمع.. يليق بحبيبة القلب..

وأقر واعترف.. اننى طوال السنوات الماضية.. لم أنس ديانا.. حتى بعد زواجها.. وإن حاولت النسيان.. بالدخول فى تجارب حب عديدة.. جريت أن أحب الليدى ليلى علوى.. لكن انضمامها لحزب أشجار الجميز.. أفاقنى من الغفلة وسوء المصير.. فيما لو كنت تزوجتها.. فأحببت اللهوية شريهان.. لكنها هجرتنى وهجرت زوجها وتفرغت للفوازير.. أحببت يسرا.. لكننى ضحيت بها من أجل خاطر صديقى عادل حمودة الذى لا يتام الليل بسبب حبه لها.. أحببت لوسى.. لكنها أحببت السينما وأفلام المهرجانات والجوائز.. فهدت إلى حب ديانا..

والآن.. وقد حدث ما حدث من خلافات بين تشارلز وديانا.. وهى

الخلافات التى قد تصل إلى المحاكم وقضايا النفقة.. بعد أن أهدر تشارلز فرصة عمره.. رغم أن ديانا الرقيقة قد ساهمت فى إعلاء شأن الملكية فى بريطانيا.. بعد أن تحولت إلى معبودة للجماهير هناك.. وهى الجماهير التى أحببت العائلة المالكة.. حبا فى ديانا.. والتى أتوقع أن تسعى لاسقاط العائلة المحترمة.. إذا ما خرجت منها ديانا..

بعد هذه التطورات.. فإن المياه قد تعود إلى مجاريها بينى وبين ديانا من جديد.. وسوف أقطع تذكرة ذهاب بدون عودة.. إلى لندن.. لأعيد وصل ما انقطع.. وأضمد جراح الماضى البعيد..

وإن أنسى ما حييت.. عندما وقعت الجوازة منذ ١٢ عاما.. أن الدنيا ضاقت فى عيني، فمشيت فى شوارع العاصمة الضبابية.. أغنى ظلموه.. وهم يزفون فى كاتدرائية سان بول الشهيرة.. اللبدي ديانا على عرسها البرنس تشارلز..

وفى آخر الليل.. صعبت على نفسى . فبكيت من القلب على كتف عمنا محمود السعدنى. ولم يوقفنى عن البكاء.. سوى بكاء السعدنى . وهو يعترف لى أنه عاشق صباه هو الآخر.. وأنه يحب الحاجة اليزابيث.. ملكة بريطانيا شخصيا.. غير أنه يكتم فى قلبه.. عملا بحكمة فريد الأطرش.. وهى الحكمة التى اتخذتها شعارا فيما بعد.
الحب من غير أمل.. أسمى معانى الغرام !

عاصم حنفي .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٩٦٤٧

I S B N 977 - 01 - 6247 - 7



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهي إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
. للشباب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاضد وما زلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

موزان مبارك



١٢٥ قرشاً

مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩